٢٠ شارع عواد خليفة

محمود محرم

٢٠ شارع عواد خليفة
محمود محرم

تدقيق لغوي : محيي الدين حسن

تصميم الغلاف : عبير محمد

رقم ايداع: 2019/2139

دار فصلة للنشر والتوزيع

٧٧ ش - صلاح الدين عبد الكريم - متفرع

من عثمان محرم - هرم - جيزه

.٢٣٥٦٢٩٣٦٩

fasla,pub@gmail,com

FB .Com/Fasla .Pub

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

جميع حقوق النشر محفوظه لدار فصلة للنشر و التوزيع إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار يعرض صاحبه للمسائله القانونيه

٢٠ شارع عواد خليفة

مجموعه قصصيه

محمود محرم

فصلة
للنشر و التوزيع
Fasla Publishing & Distribution

إهداء

إلى قارئتي الأولى،وشريكة أي نجاح محتمل..

أختي الصغرى

ألف جنيه

« إن لم يكن في طعامهم سم، فهناك نظرات تسمم البدن.

اللعنة على قهر الرجال وعجزهم . الآن فهمت دعاء أبي. والآن أيضاً أدركت أن الغرق قد يكون أهون من عون يد شامتة.

(زبيدة)زوجتي تغفل مرارة الواقع .لا، بل تتجاهلها بقلب سليم . تريد أن تحاجي على ما تبقى لدينا من عزة نفس لعلنا نجد ما نورثه لصغيرتنا.

(بشرى).. شمسنا الساطعة . تمنيت أن تكون اسماً على مسمى،لكن من الظلم أن أربط بين مستقبلك المرجو وحالنا في سنواتك الأولى. سمراء هي كأمها بلون الطمي الحنون .غمازتان في وجنتيها- كأمها أيضاً-يخبراني أنه مازال في الكون ما يسر. «

يلاحظ (عامر) وجوم زوجته منذ الصباح. بل من قبل السفر والمجئ لبيت أخيها . منذ أيقظت كل من في بيتهما فجراً على صراخها وكالعادة لم تحك شيئاً. كابوس يتكرر ويزداد سوءاً كل ليلة . في تلك المرة أيضاً رأت نفس الوجه المستدير ذو الابتسامة السمجة والنظرة الشهوانية والشعر المسبسب والشارب القصير الذي يليق بقواد متمرس . كانت تمشي ككل ليلة بجوار زوجها عامر في نفس الطريق الذي لا تعرفه . يتعثران مع كل نقلة قدم بأجساد الساقطين من الإعياء أو يصطدمان بأكتاف آخرين آيلين للسقوط . لكن في تلك الليلة استوقفهم صاحب الوجه المشؤوم، وبدلاً من أن يصفعها ويرحل تاركها تبكي ككل ليلة، اقترب أكثر وشق ثوبها نصفين بطوله فظهرت عورتها أمام العيون وظل هو ثابتاً لا يتزحزح ولا تتغير نظرته ولا ابتسامته التي ازدادت فحشاً ، ومن حولها يكملون السير نياماً ومن ينتبه منهم ينظر في ذهول أو يلتقط صوراً لتلك اللحظة المثيرة. ورجلها لم يفعل شيئاً. نعم لم يقوَ على منع المعتد ولم يقدر بعدها حتى على صفعه . لكن دموعه ظلت تشق سبلاً عدة في وجهه

وفي نفسه، بينما كفاه المرتعشان من الصدمة يلملمان الثوب الممزق لستر ما يمكن من لحم زوجته.

على مائدة الطعام سأل (عبد الحميد) أخته الكبرى: سرحانة في إيه يا زبيدة؟ .. ما تاكلي.

فعلقت زوجته(هدى) بوجه عابس : يمكن الأكل مش لادد عليها.

فردت زبيدة: أكلك زي العسل يا مرات أخوي . السفر بس مموع نفسي.

الأخ: السفر ولا ناويتوا ع العيل الرابع.

علقت هدى بصوت خافت سمعه الجميع : داهية.. وتوكلوه منين؟!

لم ينطق أحد بعد ذلك وحتى نهاية الغداء لم تسمع إلا أصوات اصطكاك الملاعق بأطباق غير مرحبة، والمضغ تحت ضروس ممتعضة.

عاد عامر يسأل نفسه :»ماذا لو عرف أخو زوجتي والحرباء حرمه سبب زيارتنا؟ يضايقها إكرامنا بوجبة غداء هي في الحقيقة فطور متواضع. يزعجها رؤية أي ضيف ببيتها. حكت لي زوجتي من قبل أنها عندما ذهبت مع والدتها لخطبتها لأخيها لم يشربا يومها كوب ماء في بيت عائلة العروس الحرباء. تشاركها زبيدة في جمع الأطباق لتنظيفها . تشاركها بكل ود، فتقابلها الأخرى بكل كبر .على عيني يا زبيدة! تعلمين أن ما باليد حيلة.غفوت حين غفوت لأنه كان يوماً شاقاً شديد الحرارة.غفوت وكانت مرة وحيدة،تعلمت بعدها أن أبقي عيني في يقظة دائمة حتى لا يكسرهما العوز. غفوت رغم عني ؛ لأن يومي في عملي الأول كان مرهقاً مهيناً، متلاحماً مع ورديتي على التاكسي. غفوت بعدما أنهكني التفكير في تدبير أمورنا مع دخول عام دراسي جديد يتطلب خطة مضادة لأسعار مسعورة . كنت أفكر في كيفية مضاعفة الميزانية لمواجهة الظروف وهو أمر مستحيل عملياً، أو التقشف وهو فكرة الحكومات المتخمة التي تلقي بفتات موائدها لإطعام الجوعى الشاكرين لفضلها في مواجهة الأزمات. وماذا عن أزمتي؟ كنت أفكر حينها رافضاً عجزي عن توفير أبسط احتياجات بشرى وأختيها الكبرتين

اللتين لم تأتيا معنا في زيارة اليوم. ضربتني الشمس قبل أن ترحل عن ذلك النهار.. فغفوت . اصطدم التاكسي بنصف نقل لم تتأثر، لكن من تأثر هو مالك التاكسي الذي هددني إما بتحمُّل قيمة إصلاحه كاملاً،أو أنسى العمل عليه ولا يرى وجهي مرة أخرى. تبقى من المبلغ(ألف جنيه)،لكن لم تفلح محاولاتي معه لتأجيل دفعهم أو تقسيطهم وتسديدهم من الإيراد. وبيتنا لم يعتاد أن نحتفظ فيه بمبلغ كهذا . فراتب الحكومة شحيح،والأقساط تلتهم نصفه.فلا يبقى في الجيب سوى جنيهات تصارع الغرق . وباب (عبد الحميد)-أخي زبيدة- ليس أول باب أطرقه، لكن من يسلّف في هذا الزمان؟! فاضطُرِرنا لقطع المسافة من المنيا إلى القاهرة أملاً في اقتراض المبلغ منه على أي حال.

كلمات جارحة نفذت كالسهام من غرفة نوم أصحاب البيت إلي مسامعنا . تغطي زبيدة على صوت المشاجرة مرة بمداعبة بشرى، وأخرى بافتعال حديث معي .تتمنى لو تصم آذاننا ولو لساعة، وتدرك في نفس الوقت أن تأثير الكلمات على كرامتنا في هذه الساعة أهون من انقطاع دخل التاكسي عن بيتنا.

في النهاية أخذنا المعونة وعيني في الأرض معتذراً لأخي زوجتي واعداً إياه أن المبلغ سيرد إليه بعد شهر ونصف على الأكثر. وانصرفنا في خجل دون أن تخرج زوجته لوداعنا قبل السفر.»

ميدان الجيزة يكتظ بالخلق.

موظفون وطلبة جامعة وعمال وشحاذون وماسحو أحذية وأصحاب شركات وأصحاب مصالح من كل لون. بازارات ومحلات أثاث ومقاهي وعربات فول وسيارات فارهة وسيارات أجرة كعلب السردين تعمي العيون وتكتم الأنفاس بعوادم تطغى على الميدان وتلخص حالته الحرجة.

تسير زبيدة بجوار ابنتها وزوجها عامر. يمرون على مسجد شهداء الجامعة، فيلفت نظرها الزوج بصوت خبير أن هناك مسجد أكبر خلفه داخل الميدان. يشير إلى مسجد الاستقامة ويقول لها «كانت المظاهرات تخرج من هنا..

أيام المظاهرات». فترد زبيدة «الله لا يرجعها أيام». تستوقفهم امرأة ضخمة الجثة بعينين زجاجيتين،وبجوارها فتاة لم تتجاوز السادسة عشر. تخاطب عامر ب»ممكن بعد إذنك» وتنتقل بعيني ذئب يعرف من أين تؤكل فريسته مخاطبة زبيدة «معلش أنا أختك في الله كنت مسافرة أنا وبنتي للمنيا وفلوسنا وقعت إحنا مش بنشحت.. بس الظروف.»

تهلل وجه زبيدة بابتسامة فرحة وكرم وقالت «انتو ولاد حلال، إحنا مسافرين المنيا تعالوا معانا». عبست المرأة وأشاحت بوجهها وقالت بخيبة أمل « متشكرين «. قالت زبيدة «يلا وما تعتليش هم ده الناس لبعضيها» فقاطعتها المرأة بحدة «ما خلاص يا حبيبتي قلنا متشكرين». وسارت بابنتها التي لا تشبهها تماماً خطوتين في الاتجاه المعاكس وعادت تمسح الطريق بعينيها وتتفحص المارة. سارت زبيدة مندهشة وسألت زوجها إن كان حدث خطأ ما أغضب المرأة أو أحرجها فلم تقبل مساعدتهما؟! رد عامر بفطنة «طب لعلمك أني شاكك إنها من المنيا، لهجتها مش صعيدية أبداً. دي إمّتن كانت مسافرة بلد تانية وانكسفت تقول، يا بتنصب على خلق الله». شهقت زبيدة «بتنصب؟!». وختم كلامه بأن أولاد الحرام لم يتركوا شيئاً لأولاد الحلال. لكن بشرى صرخت صرخة مدوية عندما اصطدمت قدمها بنصف ساق بيضاء تمتد على الطريق خارجة من تحت جلباب أبيض لرجل مسن يغطي عينيه بنظارة سوداء ويفترش الأرض متمايلاً على جانبه الأيمن تارة وعلى الأيسر تارة أخرى مستعرضاً عاهته على قارعة الطريق عله يستعطف المارة بحركاته الآلية . أشار عامر إلى الشحاذ قائلاً لزوجته أن هذا هو من يستحق الصدقة بحق وأعطاه ما فيه النصيب، وفاجأ بشرى وزوجته التي سألته عن طريق المحطة بأنهم لن يذهبوا مباشرة إلى القطار، ولكن سيأخذهما في جولة سريعة بحديقة الحيوان . طارت الصغيرة فرحاً وأخذت تقبل أبيها وأمها وتقول لنفسها أنها أخيراً ستجد شيئاً يسعدها أن تحكيه لصديقاتها وأختيها عندما تعود من هذه الرحلة التي أرهقها فيها الذهاب والعودة في نفس اليوم.

على أبواب الحديقة رأى عامر لافتة مسجل عليها أسعار التذاكر . فوجئ

بوصول سعرها للمصريين بخمسة جنيهات . على الرغم من أسفه لارتفاع سعرها وتمنيه سراً لو كانت بشرى أصغر ولو بعام حتى تفلت من سعر التذكرة المفروض على من تجاوز الخمس سنوات، إلا أنه شعر بشئ من المواساة والانتماء لتراب الوطن عندما لاحظ أن سعر التذكرة للأجانب يساوي أربع أضعاف سعرها لأبناء البلد .

بين أشجار الكافور والمشطورة والبونسيانا باهرة الجمال التي عاشت مع الحديقة أكثر من قرن وربع ، أخذت الأسرة تتجول من مكان إلى آخر بين المساحات الخضراء المبهجة التي تتخللها أنهار وبحيرات صناعية وجسور ومتاحف وبيوت للحيوانات بنيت في حينها على النمط الأوروبي .

ظلت بشرى تتنقل بعينيها اللوزيتين بين عدد مبهر من الطيور والحيوانات التي لم تتخيل أنها ستقف أمامها من قبل . تمد عصا خشبية تنتهي بسمكة صغيرة لتطعم بها البجعة ذات المنقار البرتقالي . ويضع لها حارس الفيل أوراق الخس فوق رأسها الصغير ليلتقطها الفيل بزلومته ، فتضحك بشرى من قلبها كما لم تضحك من قبل ولا تكترث بزئير الأسد ، بل توبخه على دناوته «كل دي لحمة تاكلها لوحدك يا مفجوع!»، وتنصح فرس النهر «ما يصحش تفتح بؤك كل ده وانت بتاكل» .

تلتفت زبيدة إلى رجل يقف أمام قفص النعام يشرح لطفله أن النعامة لا تدفن رأسها في الأرض هرباً من الأعداء كما هو شائع ، ولكنها تضطر لدفن رأسها لتراقب بيضها الذي وضعته قبل ذلك تحت الرمال فتطمئن على صغارها القادمين . أرادت أن تشكر الرجل، لكنها لم تفعل.

يقودهما عامر نحو بيت الزواحف ، ومن بعده إلى جبلاية القرود ، فتتعجب زبيدة من حركة القرود التي تشبه كثيراً للبشر وتقول «سبحان الله الخالق .. تحسهم بني آدمين وانسخطوا « .

إلى محطة مصر اختار عامر طريقاً تطلب بعض التمشية من الأسرة ليتمكنوا من المرور أمام جامعة القاهرة ذات القبة الخالدة والساعة التي تذكر في الراديو عند رأس كل ساعة . ثم انعطفوا يميناً بجوار حديقة الأورمان التي تعلوها لافتة تعلن عن حلول معرض زهور الربيع ، فتذكرت زبيدة كم كانت تحب الورد وكم كانت تحلم في شبابها أن يأتها حبيبها بالورد صباح كل يوم . فكرت في أن تعرض على زوجها الدخول وشراء باقة ورود كذكرى طيبة لكنها سرعان ما تراجعت عن رغبتها لأنها تدرك منذ زمن أنها لم تعد تملك رفاهية التفكير فيما تحب. فأولويتها دوماً كفاية أبنائها ثم رسم ابتسامة على وجوههم إن أمكن.

في طريقهم بشارع الدقي اختلس عامر نظرة نحو فاترينة محل مجوهرات فضاق صدره عندما تذكر عجزه عن تعويض زبيدة عن حليها الذي باعته تباعاً لمساعدته في أزمات البيت على أمل أن يرده حين ميسرة.. لم تأت بعد . ورأى خارجه شاباً وفتاة تكللهما هالة من السعادة المنتظرة فدعا لهما عامر في قرارة نفسه ألا تنطفئ الفرحة مهما واجها من أزمات.

التفت يساراً على صرخة زبيدة التي راعها رؤية رأس ضخمة لكلب أسود قوي، ذو جسم أملس تتدلا أذناه الكبيرتان المعقوفتان على جانبي وجهه المتجهم الذي يبرزه من شباك سيارة جيب ضخمة يجعله أعلى من مستوى المارة جميعاً ! انتفض عامر بفعل المفاجأة التي صنعتها رأس الكلب ونباحه المدوي، واحتضن زوجته التي كانت ترتجف وظلا صامتين يراقبان صاحبة الكلب تعود في برود حاملة كوب عصير إلى سيارتها الفارهة وتدير محركها بعد مداعبة الكلب الذي ظل ناظراً في تحد إلى زبيدة وعامر حتى ابتعد. ناولها عامر كوب مياه من محل العصير المقابل وهو يقول لعامل داخل المحل « ده كلب؟! .. ده أسد الجنينة جنبه قطة «. ليرد عليه الرجل:» انت بتقول فيها ده ما يقلش عن خمسين ألف جنيه «. ليكتمل ذهول زبيدة وزوجها،قبل أن يدفعها عامر فجأة هي وابنتها نحو الأتوبيس قائلاً: « يلا يا ولية ده رايح رمسيس «.

في الطريق أراهما دار الأوبرا ثم برج القاهرة شوكة عبدالناصر التي غطاها

التراب، وعلقت زبيدة بأنه على الرغم مما لدى القاهريين من نعم إلا أن حظ أهل المنيا من النيل أوفر وأجمل.

من بائع عسلية متجول داخل الأتوبيس اشترى عامر اثنتين لزبيدة التي تعشق العسلية هي وابنتها وفي الطريق كلما اهتزت أجساد الركاب المتلاحمين في زحام الأتوبيس انقبض قلب زبيدة لتذكرها كابوس الفجر.

وصلوا أخيراً إلى ميدان رمسيس . وأمام مسجد الفتح نزلت الأسرة وقبل أن يعبروا الطريق نحو محطة مصر همت زبيدة التي لم تزل تأكل في العسلية المغطاة بالسمسم أن تضع ما تبقى من عسلية بشرى في حقيبة يدها وبعد أن استقر كيس العسلية في قاع الشنطة تحركت أصابع زبيدة بشكل لا إرادي كما كانت تفعل من حين لآخر طوال اليوم للاطمئنان على الألف جنيه لكنها فجأة شعرت أن روحها تسحب منها تدريجياً وقلبها المنهك منذ الفجر يزداد انقباضاً، إذ أنها لم تجد للألف جنيه أي أثر .

قالت لزوجها بصوت يوشك على البكاء وكلمات تتخلل قطع عسلية صارت مُرّة بفمها ونست أن تمضغها: الحقني يا أخويا أنا مش لاقية الفلوس .

-أنهي فلوس؟!

- الألف جنيه.. باينهم وقعوا.

تركت زوجها فجأة وجرت في اتجاه الأتوبيس الذي كان قد ابتعد مسافة ليست بالقصيرة أبداً. جرى عامر وابنته خلفها فالتفتت تناديه: هِمّ يا راجل.. هِمّ الحقه تلاقيهم وقعوا في الأتوبيس. وأخذت تجري كالممسوسة ذهاباً وإياباً في قلة حيلة. تسأل المارة عن رقم الأتوبيس، وتعود فتفحص الطريق بحثاً عن الألف جنيه. تتذكر السيدة التي استوقفتهم مع ابنتها المستعارة بميدان الجيزة، فتطمئن بعينيها أن بشرى ما زالت بجوار أبيها تنحني على الطريق وهي تعبث في ترابه علها تجد ما ضاع ،ويصرخ عامر لتعتدل لكنها لا تفكر في صراخه بل تفكر في النعامة! .

ظلت هكذا والمارة يتجمعون لمشاهدة سيدة يمتلئ فمها الذي يسيل لعابه بأكل لم تبتلعه ، وزوجها ينهرها لأنها تعبث في التراب كالمجانين.

صاح عامر : قومي فرجتي الناس علينا.

قامت زبيدة وكأنها ترى الكابوس مرة أخرى وفجأة شعرت باختناق عندما انزلقت قطعة حلوى بحلقها. أخذت تسعل بشدة وعيناها تزداد احمراراً وتسيل الدموع دافئة على وجهها الذي بدأ يبرد شيئاً فشيئاً . والأصوات المحيطة بها تختلط بلا معنى محدد وعيون بشرى تفيض في صراخ هيستيري وعامر تتحجر الدموع في عينيه وهو يهز زوجته بقوة حتى لا تغيب عن الوعي فيغيب نور البيت كله.

***

سبتمبر ٢٠١٧

قبل أن ترحل

هاهي تقف عن يميني .

ترتدي قميصاً أبيضاً وجونلة من اللون السماوي، وتشترك مع باقي الزميلات في نفس لون الطرحة الوردية. لكن أحداً لا يشترك معها في سحر ابتسامتها المشرقة الصافية .. المشجعة لكل قلب .

لم أحدثها قط طوال سنوات الدراسة الأربع . اكتفيت ببعض النظرات الخاطفة المضطربة والقليل من الابتسامات العابرة كلما سنحت فرصة. لكن ياترى هل فهمت يوماً ؟ أخفيت ما يجيش به صدري كلما اقتربَت أو ابتعدَت . هي أول من تقع عليها عيناي عند دخولي المدرج يومياً. أينما تجلس تجذبني بلا جهدٍ منها، وكأنها نورٌ ساطعٌ،أو عطرٌ آسرٌ. في حضورها تتميز عن الكل دون تكلُّف. وفي غيابها أزدري الكل في تأفف. أغدو طفلاً غاضباً مختنقاً لا يحتمل تكدس الطلاب وهراء الأساتذة، وأدور برأسي وعينيّ بين خمسمائة زميل دورةً تنتهي بباب المدرج لعلّي أُبصر ما يروي ظمأ روحي.

هممت بأن أخاطبها الآن قبل أن ترحل؛ لأنه اليوم الأخير. صاح زميلنا الذي يحمل الكاميرا : «اثبتوا يا جماعة وابتسموا «. تراجعت لكن عَينيّ لم تكفّا عن النظر إلي يمامتي البيضاء وإلى ابتسامتها التي ازدادت جمالاً وثقة استعداداً للصورة. وفكرت في إعادة المحاولة .فصاح مرةً أخرى بصوته الجهوري المستفز الذي تهيج له أعصابي فأنتقل من رحابة الحب والخيال إلى عقم المشهد الذي يتراص فيه معظم طلاب وطالبات الدفعة كالتماثيل: «يا جماعة بعد إذنكم عيوننا كلنا تكون ناحية الكاميرا !».

رسمت ابتسامة فاترة على وجهي وتسمّرت في مكاني حتى التُقطت الصورة .

رأيتها تتبادل قبلات وأحضان الوداع مع بعض الزميلات. ووجدتني تائهاً في دوائر الأصدقاء نتبادل أمنيات وكلمات لا معنى لها . لمحتها مع صديقتيها اللتين لا تفارقانها أبداً يغادرن الكلية من بوابتها الرئيسية إلى الشارع الواسع

ثم ركبن الأتوبيس .

برغم ما مر من العمر إلا أنني كثيراً ما أعيد النظر إلى تلك الصورة التي احتفظت بها على هاتفي المحمول. أقرّب الصورة كي أرى وجهها وحده،فيقل وضوح الصورة وتغيم كحلم استحال إيقاظه .

***

فبراير ٢٠١٧

حُب آخر

صعيدية الملامح.ريفية اللهجة والأصل،فى أواخر عقدها الثالث.

متوسطة الجمال ،أو هكذا تبدو،بينما تُخفي بقلبها جمالاً يُضاهي ما لدى نجمات هوليود، لكنها لا تعرف التمثيل كما يعرفن .

تخشى الأيام و الناس، بينما تندس فى جموعهم يومياً لتنتقل بقطار درجة ثالثة من قليوب إلى شبرا الخيمة حيث المدرسة الخاصة التي تُدرّس بها تاريخ وجغرافيا هذا البلد مقابل مبلغ زهيد، لكنه أعلى من أعلى راتب يتقاضاه أي مُعلّم فى قريتها من المدرسة التي يعمل بها. فالمُعلمون هناك حالهم كحال أغلب معلّمي الجمهورية، لا يعتمدون على رواتب المدرسة، بل ينظمون حياتهم اعتماداً على أموال الدروس الخصوصية التي تتضاعف بزيادة أسعار البنزين وأجرة المواصلات والسجائر..إلخ. لكن اختيار الدروس الخصوصية لم يكن متاحاً لدى (منال) فهي تخشى البيوت الغريبة عنها،وترفض أن تهتز صورتها فى نظر طلابها، فتحاول أن تعالج الأمر بحوافز الحصص الإضافية ومجموعات المدرسة. فى نهاية يومها تنام منهكة القوى ولا تحلم إلا بقصة حُب تجمعها بعريس شَهم ينتشلها من قطار الدرجة الثالثة وعناء التدريس لأطفال ومراهقين مُدللين تشعر بكرههم للمدرسة ومن يُدرّس بها. تحلم وتسعى لحلمها البسيط فقط باختيار ملابس متناسقة الألوان أو هكذا تظُن بالإضافة إلى حجاب يعبر عن التزامها الديني،وفى نفس الوقت تُشمّر ساعديها لتُظهر بياضهما فى صورة تلفت النظر لعدم ثقة بالنفس تلازمها مثلما يلازم وجهها طابع الحُزن الذي وُلدت به، وازداد وضوحه مع تقدمها فى السن بلا حُب.

لطلاب فى المرحلة الإعدادية أخذت تشرح درساً عن الثورة العرابية، جذب انتباه محمود الطالب المتفوق قصير القامة صاحب الخدود المنتفخة والشعر الناعم، الذي يُصر دوماً أن يسأل منال أسئلة من خارج كتاب الوزارة، يسأل

عن «محمد نجيب» وعن مصير من ناضلوا قبل ثورة يوليو، وعن جدية السلام بيننا وبين الكيان الصهيوني، ويسأل عن الوضع الحالي فى مصر. يسأل وتجيبه منال بصوت خافت يسمعه الفصل كله وفى تلك الحصة بعدما قرأ محمود الدرس مبرزاً صوته ليعبر لزميلاته أنه قد بَلَغ. دعته منال هو ومجموعة من زملائه ليمثّلوا الحوار الذي دار بين عرابي والخديوي توفيق فقام محمود بدور أحمد عرابي، وأسندت منال دور الخديوي إلى أحمد كمال - الأشقر الطويل القامة صاحب الشعر المدهون بالفازلين دائماً - الذي لا يحبه محمود لأنه ظفر بمهمة توزيع كشاكيل مادة اللغة الإنجليزية التي تدرسها «ميس / أميرة» مما يجعله أقرب لها من محمود وكذلك أقرب لنورهان زميلته - ذات الضفيرة البنيّة والعينين الجميلتين - التي تشارك صاحب الفازلين فى توزيع الكشاكيل. «كل هذه المطالب لا حق لكم فيها، وأنا ورثت مُلك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا»..تلك كانت الكلمات التي قالها أحمد كمال قبل أن يستغل محمود الموقف ويصفعه على وجهه، فتصرخ منال «محمود ! ..عرابي ما ضربش الخديوي..هو عرّفه غَلَطُه بالأدب». فيعتذر لها محمود ويكمل دوره فى سعادة وفخر، ويكظم أحمد كمال غيظه..انتظاراً للفُسحة.

تلقّت منال عقب حصتها خبراً مشئوماً من إدارة المدرسة يفيد بأنها لن تدرّس حصصاً إضافية أو مجموعات لفصول إعدادي وسيتم إسناد المهمة لأستاذة فايزة، وذلك دون إبداء أسباب. لم تكن بحاجة لأسباب، فهي تعلم منذ فترة محاباة مدير المدرسة ومالكها لأستاذة فايزة إحدى المعلمات المؤسسات للمدرسة، والمُدرّسة الأولى لمادة الدرسات الاجتماعية، والتي لا تحمل فى قلبها أى ذرة من الحُب لمنال التي ظلّت تبكي فى شرود وقلة حيلة، فالأمر ليس بسيطاً، لقد نقص الراتب بهذا القرار مبلغاً مُعتبراً سيؤثر في ميزانية البيت الذي يعتمد على راتبها بعدما فقدت أخاها الأكبر وسَنَدَها فى هذه الحياة، الذي رحل منذ عام إثر أحد التفجيرات التي نُفّذت ضد مجندين يحرسون حدودنا فى سيناء، بعدما كانت تنتظر عودته بعد قضائه الخدمة العسكرية لتجد من يزرع القيراطين قبل أن يبورَا ويطعم أخواتها. بكت كما لم تبكِ من قبل. لم تكن

تبكي بالتحديد على الراتب الذي نقص، وإنما تبكي بكاء المظلوم الذي تكاتلت عليه أحزانه وهو الضعيف الذي لا حول له ولا قوة.

عَلِم محمود وزملاؤه بقرار الإدارة التي فَرَضت عليهم أستاذة فايزة التي تُجبر طلابها على أخذ دروس خصوصية معها وحرمتهم منال ببراءتها وأسلوبها الشيّق فى حكي التاريخ المصري، فقرروا التمرد، وكتب محمود شكوى إلى مدير المدرسة - ذي الهيبة التي تُشعِر المُدَرّسين بأنه رئيس جمهورية المدرسة وحاكمها الذي لا يناقش فيما يأمر به - ووضع محمود اسمه فى أول قائمة الموقعين بعدما استلهم تجربة عرابي، وتشجّع زملاؤه على التوقيع معه، حتى أن أحمد كمال وقّع هو الآخر، فاحتضنه محمود حُضن العائد من السفر وفى أذنيه الموسيقى الشجيّة لمسلسل(سوق العصر).

استغل الطلاب خُلُو حجرة المدير، وتحركت نورهان فى خفة ووضعت الشكوى فوق مكتبه الفخم. تلك الشكوى التي يُعلنون فيها موقفهم بالإضراب عن الدراسة،وإبلاغ الأهالي بابتزاز أستاذة فايزة لطلابها،ذلك إن لم تَعُد أستاذة منال للتدريس لهم. بعد مرور أسبوع على تقديم الشكوى اضطرت الإدارة الرضوخ لمطالب الجماهير الصغيرة؛ ذلك خوفاً من تصاعد الموقف والدخول فى مشاكل لا نهاية لها مع الأهالي الذين يدفعون الكثير إلى المدرسة فى بداية كل فصل دراسي. استجابت الإدارة وفى قرارة نفسها اتفق أعضاؤها على نقل محمود من بداية العام القادم إلى فصل آخر لتحجيم تأثيره ووأد أي تمرد مُحتمل فيما بعد.عَلِم التلاميذ بقرار عودة منال، فذهبوا يبشرونها. انفك عن وجهها طابع الُحزن وحلّت محلّه ابتسامة طفولية ودموع فرحة صاحبت إنصاتها لمحمود وهو يحكي كيف انتصر الصغارعلى الإدارة. فقبّلته على خدّه الوردي قُبلة تمنّاها قبل ذلك من»ميس/ أميرة»- التي تقل فى العمر ثماني سنوات عن منال - أو من صاحبة الضفيرة البُنيّة،لكن قُبلة منال كانت أغلى فى تلك اللحظة التي نحّى فيها المراهقة جانباً،وعاد طفلاً محبوباً،ورأت منال في أعين تلاميذها الفَرِحين أرضاً بِكراً لم يصبها البوار.

***

مارس ٢٠١٥

خادم المسجد

مر النهار بغير إنجاز يذكر.

وكأن الشمس ترقبت غفلتنا كي تتسحب على أطراف أصابعها وتغادر دون أن نراها.

فلم نعد نراها.

جاء الغروب حاملاً الكآبة وتأنيب الضمير. استغفر (كريم) ربه واغتسل من ذنبه وهمّ بالنزول إلى المسجد كي يصلي.. ويعود.

للمسجد باب للتوبة مفتوح على مصراعيه. في لون بني قاتم تتداخل نقوشه الإسلامية التي تكلله بالهيبة الحاضرة والرحمة المأمولة.

خطى بيمناه في خشية ورجاء ثم تمتم بدعاء الدخول المعلق في مستطيل أخضر بحجم الكف على إحدى ضلفتي الباب :»بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله. اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك.»، لذلك جاء، ولذلك بات مستعداً ألا يغادر.

حيا المسجد بركعتين، ثم جلس متربعاً على أرضه الشريفة. دارت عيناه على كل شبر بالمسجد كطفل يجلس مبهوراً بمكان لم يأته من قبل.

هذا الميكروفون لا يُنطق فيه عبثاً بما يغضب الله، وتلك السماعات لا يصدر عنها صوت باطل أو مضلل. هذه المكتبة لا تحوي ما يفتن أو يثير. كلهم معزولون ومكرمون بوجودهم هنا،بالضبط كهؤلاء الجالسين من حوله يلجون بذكر الله من تسبيح ودعاء واستغفار. لا يعلو صوت أحدهم على الآخر ولا يتكبر أحدهم على الآخر. لكنه تساءل بعد جلوسه بينهم: إذا كنا بهذا النقاء والالتزام بأوامر الله الذي نخشاه في المسجد دون أن نراه لأنه حاضر في كل شيء، فلما ننسى ذلك بمجرد الخروج؟!

من بين الجالسين قام رجل عجوز نحيل، أسمر اللون ذو شارب كث، يرتدي جلباباً أزرق وطاقية صفراء تحيطها عمامة بيضاء. اقترب من الميكروفون وطرق عليه بسبابته بعدما ضغط على زر تشغيله. أقام الصلاة بصوت ليس بجيد خرج من ميكروفون بحاجة أكيدة لإصلاح، ورجل بحاجة أكثر لدواء وغذاء. في الخارج اختلطت أصوات الجوامع وتداخلت كما تتداخل في آذان كل صلاة لتحير الناس خلف أيهم يرددون؟!

في صلاته الشفاء من أمراض نفسه، وفي خضوعه بالركوع والسجود يغسلها من الآثام. في الركعة الثانية قرأ الإمام سورة التكاثر، ليجد كريم نفسه داخل السورة، ويجد الله العليم يوقظ روحه المنهزمة.

انتهت الصلاة وانتهى المصلون أيضاً من أذكارهم ونوافلهم لكنه لم ينتهِ . انصرف الجميع لكنه بقى. كان آخر الخارجين رافع الآذان-خادم المسجد- ذو الجلباب الأزرق والطاقية الصفراء. تباطأ في خروجه وتنحنح أكثر من مرة، ورمق كريم بأكثر من نظرة ختمهم بواحدة طويلة متفحصة، وكان على حافة الغضب عندما وصل لباب المسجد وأغلق إحدى ضلفتيه بقوة ، وتنحنح مرة أخيرة ثم رحل تاركاً كريم وحده في المسجد.

قضى الوقت بين صلاتي المغرب والعشاء في قراءة القرآن الكريم وحينما جاء وقت الآذان همّ ناحية الميكروفون وأذّن بصوت خاشع مغمضاً عينيه.

بعدما انتهى، وجد خادم المسجد يقف عند مدخله بنظرة تأنيب لكنه تجاهله وعاد لأذكاره. وحينما جاء موعد الإقامة أسرع ذو الجلباب الأزرق وأقام الصلاة.

صلى الفتى بنفس مطمئنة. انتهى من الفرض والسنة وانصرف مع من انصرفوا وعند خروجه قرأ دعاء الخروج»اللهم إني أسألك من فضلك،اللهم اعصمني من الشيطان«. وعبر الشارع إلى البيت المقابل للمسجد، وعندما التفت مرة أخرى كان خادم المسجد يغلق بابه بقفل محكم.

***

في فراغ الحجرة تتراقص شياطين الخيال على أنغام الشهوات.

يخشى السقوط . ولا يدرك أن خوفه المُفرِط قد يجذبه إلى ما يخاف بدافع من الشغف أو إدمان الخنوع.

يبحث عن مهرب. يفتش عن منفذ.

يرى التلفاز جزءً من المخطط. هنا أناس يتصايحون ويتكالبون على إنفاق الملايين لتقديم منتج رديء..لاينجح . فيعيدون إنتاج أجزاء أخرى من نفس العمل. هنا أيضاً يرى إعلانات لكومباوندات خيالية لا يمكنه رؤيتها في الواقع. هنا أنصاف بل أرباع الموهوبين يسيطرون في برامج تتنافس على جلب نجوم الشباك على حد قولهم للمشاركة في مسابقات وألعاب خفيفة الظل ثقيلة الدم للترفيه عن المشاهدين.هنا أيضاً يرى ما لم يسعفه الخيال ليراه.

وهنا أخبار عن قتلى من كل مكان قُتلوا لأسباب غير معلومة على أيدي جهات معلومة وكأن الاستنتاج الذي يستهدفه ترتيب الأخبار أنه لا عدل على هذه الأرض.

يشك في عدل السماء!.

يغلق التلفازويخرج إلى الشرفة. مازال الباب موصداً ومازال الكثير من الوقت حتى يؤذَّن للفجر.

تضربه رياح الليل بهواء منعش وهوى مُحبب.

يغلق الشرفة ويدخل غرفته المظلمة يتربع ممسكاً بهاتفه الذكي .أذكى من الشيطان في رأيه . يمكنه من فتح نوافذ هواه وهاويته.

ينغمس فيما اعتاد. يُستنزف عن آخره..أو يكاد.

ثم يأتي النوم.

في صباح اليوم التالي..

قال له زميله (باسم) العابس دائماً:

-نعيماً..يبدو أنك ذهبت للحلاق بالأمس.

-بالفعل.

-اسمح لي..لماذا لا تُطلق لحيتك يا كريم؟!

-لدي لحية..واعتدت تهذيبها كما ترى.

-هذه ليست لحية. إنما هي (موضة)!.

انظر إلى ما لدي..هكذا تكون كما أنك لا تحف شاربك وهذا مخالف للسنة.

لم يعلق كريم.فأكمل باسم ما بدأه:

-صدقني..إذا ربيت لحيتك،ستربيك هي الأخرى.

-هل ترى نقص في تربيتي يا باسم؟!

ازداد زميله عبوساً ثم أجابه: «لم أقل ذلك».وانصرف عن كريم عائداً لاستكمال عمله.

مال (حلمي) برأسه يميناً جهة كريم زميله الجالس على المكتب المجاور وهمس له:

-دعك منه..متى ستتحرك لإنجاز مهامك الخارجية؟

-بعد نصف ساعة على الأكثر.

-عظيم وأنا أيضاً..

- إذن تأتي معي اليوم.

-بالله عليك يا حلمي كيف نذهب إلى السينما أثناء مواعيد العمل؟!

-أي عمل يا مولانا؟!..شبابنا يضيع هنا صدقني ورواتبنا تأكلها المواصلات.

اسمعني..سننتهي من مهماتنا الخارجية في أسرع وقت ثم نلحق بحفلة الظهيرة.

-قلت لك قبل ذلك هذه خيانة للأمانة كما أنني أتعجب من حبك لكل الأفلام دون تمييز بينهم!.

-لا يهمني ما يعرض فهي أفلام ليست من اختياري لكن أفلامي التي تجاورني في السينما أختارها بعناية وهي دائماً أفلام جميلة وفاتنة يسعدني قطفها كالورد البلدي.

-آه..أفلام مدرسة البنات.

-عليك نور.

-هذا شيء مقزز!.

-بالعكس،هذه تصبيرة لذيذة للجوعى أمثالنا حتى يأذن لنا الزمن أن نتذوق طعم الأكل (البيتي) كباقي الخلق.

-اسمع يا حلمي..إذا كررت دعوتك هذه مرة أخرى سيكون ذلك آخر حديث بيننا.

ارحمني يا أخي واذهب وحدك كما اعتدت.

-أنا أدعوك فقط حينما أحتاج إلى مُرافق.أعني عندما يكون للفيلم الذي يجالسني في السينما مُرافقة أيضاً يا صديقي.هل فهمت؟

-آه..إذن لما لا تستعين بباسم؟

-باسم؟!

-نعم..سأعرض عليه الأمر.أعدك أن أفعل ذلك إذا دعوتني مرة ثانية. حينها سيتكفل باسم بأن ينتف لك شَعر هذه (الدوجلاس) التي تعجب بنات المدرسة الفنية شَعرة شعرة كالديك الرومي.

-الديك الرومي!..هل هذا ما أستحقه؟!

-بالتأكيد.

انتهى حديثهما حينما سمع كل منهما هاتفه يرن لوصول رسالة ما على (واتس آب). كانت نفس الرسالة لكليهما،وكالعادة من باسم الذي يجلس في الغرفة المجاورة.كان نصها:»قال العلامة ابن عثيمين:»مهما فسق ولاة الأمور لا يجوزالخروج عليهم،ولو شربوا الخمر،ولو زنوا،ولو ظلموا الناس.»».

***

عند عودته من العمل سمع صوت الآذان يستقبله على مشارف شارعه.هاهي دعوة للمكان الذي تسكن فيه نفسه وتهرب من ضوضاء المدينة.

لاحظ بعد صلاته وجود (مصطفى) في الصفوف الخلفية. ذلك الشاب الذي كان يَؤمهم في كثير من الأحيان والذي لم يره منذ ما يقارب العامين .أصابه بعض الشيب وتلوح في عينيه نظرة تُشعرك نحوه بالشفقة والحيطة.

بينما كان كريم يصلي السنة،سمع خادم المسجد يسأل مصطفى:

-ألم تنتهِ بعد؟

-انتهيت بالفعل.

-إذن ماذا تنتظر؟!

-لم أعد أنتظر شيئاً.

-وأنا أريد أن أغلق المسجد.تفضل واخرج الآن.

سمع كريم صوت مصطفى من خلفه يعلو في توتر ناطقاً بكلمات مختلطة غير مفهومة، ويرددها بنبرة مفزعة تقف بين البكاء والغضب.لم يتمالك كريم نفسه ووجد عينيه يدفعهما الفضول والخوف لتنظر نحو باب المسجد أثناء صلاته . رأى ذا الجلباب الأزرق يسحب مصطفى من يده والأخير محني الظهر في ضعف وتشتت، ويردد عباراته المطموسة حتى صار خارج المسجد وودعه خادم المسجد بقوله:»أرهقتني..الله يلعنك«.

بعد انتهائه من صلاة السنة وهو لا يعلم متى بدأ ولا كيف انتهى؟ اقترب منه خادم المسجد فسأله كريم في وجوم:

-لما فعلت ذلك؟!

-لم أفعل شيئاً..هذا لمصلحته ومصلحتنا جميعاً.

لا حول ولاقوة إلا بالله..كان صوته عذباً في قراءة القرآن.اليوم لم يعد صالحاً للإمامة،ولا تجوز صلاته من الأساس.

-هل من المفترض أن أخاف من نفس المصير إذا انتظرت؟

-أنت لن تنتظر وأنا لن أفعل شيئاً. أنا رجل عجوز،وأنت شاب عاقل.

إن هذا المسجد مخصص فقط للفروض.فلم يعد به دروس فقهية،ولا مقرأة تنتظرها بعد صلاتك لكن بالطبع بإمكانك أن تصلي النافلة مباشرة عقب كل فرض.

-أشكرك على كرمك.

-يا بني..ما أنا إلا خادم المسجد،وتلك تعليمات صاحبه.

-هل للمسجد صاحب؟!

-بالطبع..ما المسجد إلا زاوية في هذه العمارة،ولصاحب العمارة اليد العليا في تحديد مهام كل طابق بها.

***

خرج بخطوات متثاقلة تجره كلمات العجوز الباترة مكتوف اليدين بالنبرة اللئيمة الحانية، بعدما طرد من جنته الأرضية إلى الشارع الذي لا يقوى على مجاراة ناسه.

عبر الطريق نحو البيت الذي يستأجر بمفرده إحدى غرفه .كان يفكر في وحدته القاتلة،وفي أهله القابعين جنوباً المنتظرين دائماً لزياراته الشحيحة ولمعونته التي تسند جدران دارهم الريفية كلما استطاع.

وبينما كان يسير واجماً بخطوات العجائز، سمع فرملة لسيارة مسرعة عن يمينه مباشرة. التفت فرأى أول بركات الشارع سيارة (بي إم دبليو) بيضاء مكشوفة، تقودها فتاة ذات بلوزة بيضاء مكشوفة ينسدل شعرها الأسود الفاحم على جانبي وجهها الخمري، ورأى في عينيها الجميلتين زرقة تشبه أيضاً لعلامة سيارتها (البي إم دبليو) سمع صوتها توبخه في جرأة :»هل ستصورني؟!«

تمنى لو يصورها ويزين بصورتها غرفته الخالية الكئيبة ويكتب تحت الصورة « فتاة ماركة بي إم دبليو». في المساء كانت حاضرة أيضاً، فهذه ليلتها بالتأكيد ضاجعها وضاجع سيارتها المكشوفة. وانتبه بعد نفاد البنزين إلى فراغ حجرته الضيقة فعاوده تأنيب الضمير ثم غط في نوم عميق.

رأى في الحلم باسم يرتدي جلبابا قصيراً ويتربع على الأرض أمام محل الحلاقة المغلق. مر من أمامه فأشار إليه حلمي من ممر جانبي أن يتبعه وفي يمناه جيب كحلي وفي يسراه ضفيرة نصف مفكوكة. جرى بأقصى سرعة ففرملت الجميلة سيارتها في الوقت المناسب وأمرته أن يركب في المقعد المجاور لكنه أبى

وقبض على الجمر. ظل يجري لا يعرف إلى أين ولا إلى متى؟! حتى وجد عن قرب حديقة مزدانة بورود ورياحين، وطيور من كل لون تغرد فوق أشجارها اليانعة، وفراشات تداعبه في خفة ودلال، وابتهالات عذبة كنسمة منعشة تتراقص معها الأغصان والزهور. سمع صرير البوابة الضخمة للحديقة يغلقها عجوز في جلباب أزرق حتى حيل بينه وبين نور قلبه ، وعم الظلام.

صحا بعد حين. اغتسل وتوضأ. نظر إلى ساعة الحائط. لماذا لم يؤذَّن للفجر في المسجد المقابل حتى الآن؟! وقد يكون رُفع الأذان دون أن يسمعه. نزل إلى المسجد فوجد دائرة من أربعة أو خمسة أفراد أمام بابه المغلق . اقترب في توجس. سمع بكاء مكتوم وترديد للشهادتين. اقترب أكثر. رأى العجوز ذا الجلباب الأزرق راقداً على الأرض في سبات عميق ولمح كلمتين مكتوبتين على الباب بلون الدم القاتم الحمرة..»بيت الله«.

لم يعرف إن كان دم القتيل أم قاتله.

***

نوفمبر ٢٠١٧

بدلة عرفه

سبع سنوات هي عمره بالشركة .

بدأ كشيّال يُحمّل البضائع على العربات ، ثم صار سائقاً لإحداهم ، حتى استقر به الحال كمندوب لتحصيل فواتير الشركة من الجهات التي تتعامل معها . وقتها دفعت له الشركة مقدم دراجة بخارية – أو (مكنة) كما يحب أن يسميها – يدفع هو أقساطها من راتبه ،و تعينه في مشاوير التحصيل .

في منزله المتواضع تسكن حنان الزوجة و الأم لولدين و بنت. تغمرالبيت بدفء و حياة عامرة بخفة الظل و الروائح الزكية لأشهى الأكلات الطيبة التي يذوب فيها عشقاً عرفه و أبناؤه الصغار .

فى مطلع العام الجديد اتخذت إدارة الموارد البشرية بالشركة بعض القرارات المتعلقة بزي العاملين . وألزمت قسم التحصيل بأن يرتدي موظفوه بدلة كاملة أثناء العمل حتى يظهروا بصورة أفضل أمام عملاء الشركة . و ستتكلف الإدارة المصاريف لتفصيل بدلتين لكل موظف بالقسم وحددت محل الترزي الذي سيتعاملون معه.

انزعج البعض في البداية من هذا القرار انزعاجاً يصاحب كل جديد ، حتى تحول مع الوقت إلى رغبة وشغف لرؤية الصورة الجديدة التي سيظهر عليها موظفو القسم.

بيد أن الشركة استرخصت واعتمدت على ترزي متواضع الحال ، يؤدي الغرض فحسب وعندما اعترضت الأغلبية على رداءة القماش و التفصيل ، ردت الإدارة بأن القرار قد اتُّخذ وعلى المتضرر أن يشتري بدلاً أخرى من راتبه !

كان عرفه هو الموظف الوحيد تقريباً الذي نجا من مذبحة البدل فلم يخطئ الترزي في مقاسه ولم يغير لون القماش الذي اختاره لنفسه على عكس ماحدث مع أغلب زملائه كما ساعده طوله وعرضه على أن يظهر في البدلة الجديدة

كنجم من نجوم الشاشة ولا يظهر بشكل مثير للضحك كمعظم زملاؤه .

لم يرتدِ عرفه في حياته بدلة سوى مرتين. كانت الأولى في فرح أخته الكبرى عندما ارتدى بدلة أبيه القديمة التي حاولوا إصلاحها لتناسب مقاسه، ولكن لم يفلحوا . والمرة الثانية كانت في فرحه هو مع حنان . تلك البدلة الوحيدة التي كان يمتلكها قبل قرار الشركة الأخير ، والتي لم تعد مناسبة له الآن بعدما ازداد وزنه وتمدد كرشه بفعل أكلات حنان الدسمة .

طار عرفه فرحاً ببدلته الجديدة . وقف أمام المرآة في زهو وعظمة. أحكم رابطة العنق التي اختارتها حنان له، وأخذ يلتفت ويعيد النظر إلى صورته في المرآة . جاءته حنان بالشاي باللبن والبقسماط كي يفطر ، سمّت وكبّرت ودعت الله أن يحفظه ويجعلها قدم السعد ويذيبها في عرق العافية.

ظل أمام المرآة ، ممسكاً ببقسماطة يأخذ منها قضمة بعد أن ينتشلها من كوب الشاي باللبن ، ويستحضر روح السادات ممسكاً بالبايب ومحذراً شعبه «الديمقراطية لها أنياب !» ، ثم يتنحنح و يضبط أحباله الصوتية على نغمة عبد الناصر مؤمماً قناة السويس عدة مرات وحنان تراقب من بعيد في توجس حتى انتهى من فطوره .

نزل إلى الشارع وحيّا صاحب عربة الفول و القهوجي بيدٍ واحدة وهما منبهران بصورته الجديدة الأنيقة. سار في خطوات واثقة حتى ركب المكنة بحرص ثم انطلق وهو يشعر بأنه امتلك العالم.

في الشركة هنأه زملاؤه من الأقسام الأخرى على البدلة الجديدة،بينما اختلفت مشاعر زملائه من قسم التحصيل بين من يهنؤه بصدق ومن يخفي في نفسه حسداً تجاهه بعدما أفلت ببدلته الأنيقة،وكأن قرار الشركة قد صدر خصيصاً من أجل عرفه صاحب الحظ السعيد .

تغيرت نظرة عملاء الشركة لعرفه أثناء تحصيله الفواتير منهم ، و بالأخص السيدات والموظفات اللاتي كثيراً ما عاملنه من قبل بأسلوب جاف متعالٍ كمن

يأتي ليتسول منهن .

في طريق العودة للمنزل ذات يوم لمح صورته على زجاج فاترينة إحدى المحلات كان عملاقاً وقوراً بلا شك،ولكن لاتعيبه سوى هذه المكنة التي لاتتناسب أبداً مع أبهة البدلة الجديدة .

قرر أن يفاتح حنان في الأمر،واقترح أن يقوما بشراء سيارة بالتقسيط ، فذكرته أنه لم ينتهِ بعد من سداد أقساط المكنة،وحتى لو استطاع بيعها فهذا لن يأتِ بما يكفي لدفع مقدم السيارة. كانت ردودها قاطعة باترة، كررت له أن عليهما أن « يعيشوا عيشة أهاليهم « وعادت وزادت في أمثالها من نوعية « على أد لحافك مد رجليك» ، وأنهت الكلام ب»ما تحلمش يا عرفه .. ماتحلمش أوي والنبي».

خرجت الكلمات سهلة يسيرة على لسانها ، لكنها كانت صفعة قوية على وجهه.أحيت صورته في البدلة أحلامه الدفينة.كان يظن في صغره أنه سيصير رئيساً للجمهورية بلا شك،يقلب الأوضاع السياسية في مصر والعالم كله. سيهزم إسرائيل بخطة محكمة أعدها في الصغر. سيُعيد أمجاد صلاح الدين ويجمع العرب على قلب رجل واحد.ذكّرته البدلة بقدرته على التمثيل و تقليد أساتذته أيام المدرسة،وكيف حلم قديماً أن يصير نجماً ساطعاً في عالم الفن. ذكرته بأبيه عندما كان يقول :» عرفه أذكى اخواته» ، وكيف ظن في صباه أن العالم ينتظر إضافاته العلمية المبهرة. لكنه كبر فجأة وجرّته الحياة من يده ثم دفعته إلى طابور لقمة العيش.. صحا من نومه شخصاً عادياً ، صحا وقد انتهى الحلم الجميل،صحا على صوت المنبه المزعج الذي يوقظه في السادسة صباحاً ليقاوم الراحة ويزيحها مرغماً ، ويترك فراشه كي يستعد ليوم شاق. يتحرك في عجلة ؛ ليلبس ويصلي وينزل مسرعاً إلى الشارع المزدحم،يشق طريقه بأسرع ما لديه،وينتقل بالمكنة يميناً ويساراً بين السيارات المستسلمة للطريق المعطل ، فيسمع السباب الموجه إليه ولا يلتفت حتى لا يصل متأخراً إلى الشركة ، فلا يلحق بالبصمة فيخصم له نصف يوم .. ثم يوم .. ثم يومان، وكم يوماً يبقى

في الشهر،وكم جنيهاً يبقى من الراتب،وقد تم توزيعه مسبقاً على مصاريف البيت ودروس الأولاد وباقي الأقساط والجمعيات ، والأسعار تزيد ولا أحد يرحم .. وتقولي أنتِ لا تحلم !

استدعته مديرة مدرسة أبنائه لتخبره بما فعله ابنه الأكبر الذي سبّ أحد زملائه بألفاظ خارجة. ذهب عرفه مرتدياً بدلته ، وجلس أمام المديرة واضعاً ساقاً فوق الأخرى،وأخذ يحدثها بلباقة محركاً يديه مع تعبيرات وجه مفتعلة وكلمات تتناقض بشكل يصعب ترجمته ، فيشير بإشارات حاسمة بينما ينطق بجمل من نوعية «الولد برغم وساخة لسانه لكنه متربي كويس» أو «اسمحي لي يا هانم الشتيمة مابتلزقش». تشعر بأنه خبير استراتيجي وقور يقرص عجينة الطعمية بشياكة ويلقي بها في الطاسة بمهارة وإتقان لن تجدها إلا في مطاعم البغل .

هكذا صار عرفه .. يعيش عالماً مغايراً ، يعرف أنه عالم كاذب ملوّن ،لكنه يخشى الخروج منه ، ويهرب من العودة كطفل عانق البحر في صيف مشتعل فهرب باكياً عندما أخبرته أمه بوجوب الرحيل لانتهاء الإجازة .

انتهى من شرب الشاي وأسند ظهره إلى الكنبة وهو جالس بجوار حنان على أرضية (أوضة) الجلوس ، ولم يكن يشغله فى تلك الفترة سوى حنان ومستوى تفكيرها وثقافتها المنحدرة التي لا تتناسب مع عالمه الجديد.

-أنا حاسس بحصار نفسي رهيب يا حنان

-أغلي لك نعناع يسهّل معاك

-نظرات زملائي فى الشغل بقت كلها حسد وضغينة

-حسدوا الفقيرة على الحصيرة !

-حنان .. مابتفكريش ترجعي تقري جرايد زي زمان ، الثقافة حلوة برضك

-يوه .. يعني هوه أنا كنت بقرا و مابقتش بقرا ، ما أنا لسه زي ما أنا بقرا ..

-على رأيك !

أصبحت حنان عبئاً على بدلته الجديدة.وأغرته نظرات النساء التي لم يكن معتاداً عليها وأيقظت به فحولةً منسية منذ أنجب ولده الأخير تقريباً .

كثرت مشاجراته مع زوجته وعلى أتفه الأسباب ، وفي إحدى معاركهما قالت بصوت مختنق « الأولة اتبطرت ع المكنة وعايز تغيرها .. دلوقتي نفسك تغير مين تاني يا عرفه ؟ «.

جاء الصيف بحرارته التي توقد أجسام (الشغّيلة) وتغسلهم عرقاً ومشقة . وبرغم الشمس التي تلهب القاهرة في هذه الأيام ظل عرفه ملتزماً ببدلة الشركة ورابطة العنق التي كادت تخنقه. هو يحترم النظام ويقدسه ، وفي الوقت ذاته يخشى وشاية عصافير الشركة المنتشرين في مصالح وهيئات عديدة ، ويتمنون خدمة الإدارة في كل وقت وحين .

ضاق زملاؤه ذرعاً ببدلهم التي لاتناسب جو الصيف ، وكلما اعترض أحدهم خصم له من راتبه ما يكفي لردعه وردع من تسوّل له نفسه تكرار فعلته. صارعرفه جباناً في عيون زملائه، يتبختر في بدلته بينما يعانون هم من تعنت الإدارة.

أمام حديقة الأورمان وفي إشارة المرور المؤدية إلى الشركة بالدقي كان يقف بانتظار اللون الأخضر الذي سيعلن انتهاء يوم حار ملئ بالمجادلات والوجوه العابسة المتوجسة خيفة من غدر الآخرين وخداعهم . فاجأه بخفة وسرعة ومهارة خبير. لص يركب خلف زميله الذي يقود دراجتهما البخارية والذي لا يقل عن صاحبه سرعة ومهارة في التسرب والفر وشق الطريق بين السيارات العاجزة . فاجأ عرفه وخطف حقيبته الجلدية التي وضعها خلفه في صندوق المكنة ، تلك الحقيبة التي تحتوي على خمسين ألف جنيه قام بتحصيلهم للشركة. تلك الحقيبة التي اشتراها لتتناسب مع البدلة ، بعدما ودّع حقيبة الظهر التي خاف أن تفسد هيئته الجديدة. تسرب الأدرينالين في أطراف عرفه

بسرعة فاقت سرعة اللصين ، جرى بدراجته خلفهما متجاهلاً الإشارة التي لم يكسرها من قبل. راوغاه ودوّخاه لكنه تمسك بمطاردتهما وبأقصى سرعة سقط حامل الحقيبة من فوق الدراجة البخارية. واضطر للفر من بين حواري وشوارع جانبية يصعب على عرفة دخولها بالمكنة. نزل عرفة هو الآخر من فوق دراجته و أطلق ساقيه للريح خلف حامل الحقيبة يجري ويبكي، يجري ويصرخ في قلة حيلة « الحقوني .. سرقوني .. سرقوني .. يا ولاد الكلب .. يا ولاد الكلب دي فلوس ناس ، حرامي .. حرامي ..».

يخلع بدلته التي كبّلته ، ويجري فيُقطع بنطلونه بعدما مد ساقه وفتح برجله على آخره كي يلحق بالسارق . يصرخ والعالم أصم .. العالم أعمى ، العالم شريك فيما يرتكب من جرائم ، الناس أموات .. أصنام ، والمصيبة تحل على صاحب المصيبة وحده والناس تكتفي بالمشاهدة والمواساة .

يا من تجيب المضطر إذا دعاه ..

تملكه اليأس بعدما تلاحقت أنفاسه من شدة الركض خلفه ، وتصبب عرقاً وقلّت سرعته إيذاناً باقتراب نفاذ بنزينه ، حتى فُرجت .. والله فرجت بعدما ضاقت وكاد ييأس من اللحاق به.تحرك من بين التماثيل شاباً مد ساقه أمام حامل الحقيبة فعركله. انقض عرفه بكل جسمه فوق الساقط على الأرض وأخذ يسبه بكل ما يعرف من شتائم ويلكمه مرات عديدة حتى نزف وغطت الدماء وجهه .

عاد عرفه إلى الشركة ببنطلون ممزق يحمل الحقيبة بيد وعلى الأخرى يحمل (جاكت) البدلة التي سلمها له أولاد الحلال بعد معركته مع الحرامي.عنّفه مديره المباشر « إزاي تجرؤ تدخل الشركة بالمنظر ده ؟ إلبس بدلتك وصلّح بنطلونك «. بهدوء وثقة رد عرفه « البنطلون إتفتأ عشان ألحق فلوسكم والبدلة مش هلبسها تاني ولا تخصّني .. دي كانت شؤم. « ، وألقى بدلته على الأرض أمام أقدام المدير مما أثار إعجاب زملائه، فقال أحدهم: « وإحنا كمان البدل ماتخصّناش وأخذوا يلقون بالبدل أمام أقدام المدير الذي صرخ في

وجوههم « ده تمرد بقى .. اللي مش هيشيل بدلة الشركة ويلبسها مخصوم منه شهر بحاله» فيزيد عرفه الطين بلّة ويعلنها للمدير «البدل ماتخصّناش شيلوها أنتم ، إنما إحنا مضربين عن التحصيل لحين إلغاء قرار البدل «، فيصفق الجميع و يجلسون على الأرض في شبه اعتصام أمام مكتب المدير الذي دخل في نقاش حاد مع البعض، وانضم للتجمهر آخرون من أقسام الحسابات والفواتير وغيرهم ممن يعانون من تأخر رواتبهم كل شهر عن المواعيد الطبيعية .

انشغل الجميع وانقلب حال الشركة في تلك الساعة ، وفي عز الهَرَج والمَرَج التفت أحد الموظفين إلى زميله الجالس بجواره على الأرض وسأله في حماس : «فين الزعيم ؟ فين البطل عرفه ؟! «

فوق دراجته البخارية الواقفة أمام الكشك المجاور للشركة كان يهزم الحر ويرطّب على قلبه بزجاجة (بيبسي) شربها دفعةً واحدة،ثم مسح جبينه بظهر كفه الأيسر وتكرّع بارتياح،ونظر بعمق إلى الشارع الخالي وقال لنفسه « ياترى يا حنان طابخة إيه النهارده ؟»

وانطلق بالمكنة مستقبلاً هواءً جديداً ..

***

مارس ٢٠١٦

لم يعد ينتظر

كان قدومها دوماً يؤذن بحلول العيد .

كان قلبه طفلاً يشتهي الفرحة .. ويعد لها عدته .

في لقائهما الأخير، سألها أن تجيبه بلا مواربة. فانكشف كذب عينيها العابثتين. وكانت النهاية.

على الرغم من تأرجحه وقتها بين اليأس والندم،صار عزاؤه الوحيد أن الطفل نما وتحرر .

ذلك؛لأنه .. لم يعد ينتظر .

***

ديسمبر ٢٠١٦

ليلة زفاف القمر

الحب مكروه في بلدتنا .

فلا يوجد من يؤتمن على قلب ، ولا من يستحق أن يُحَب ، ولا من يقوى على أن .. يُحِب .

قلّ الرجال وخافت النساء أن تظل نساءً وسار الجميع بوجوه جامدة في عجلة ونَهَم .

تقوَّى الكثيرون بالكره وضَعُف بالطيبة من استمسكوا بالحب وباتت القصص تُعاد بحثاً عن نهايات أخرى، ولكن دون جدوى فصار أمراً متفقاً عليه ..

الحب مكروه في بلدتنا .

تحكي الأم أن الأمر لم يكن هكذا في عمرها الأول . تحكي عن ظله الذي غمر الأسرة بفيض حنانه. تحكي عن حضنه العامر بالدفء والطمأنينة، وعن قسمات وجهه الأسمر المهيب. تحكي عن رحيله . كانت تحكي. وكانوا ينصتون .

هاهُم اليوم كلٌ في ملكوته . يقف سالم كمن تتخبطه الشياطين من المس . يحاول إخفاء اضطرابه فيزداد اضطراباً . ينقل عينيه السوداوين في حيرة بين المصابيح الملونة - التي تحاول جاهدة كسر الظلمة - وبين الخيول التي تتراقص على صوت المزمار .

يتساءل كمن يضرب السؤال في حائط أصم ليرتد إليه بلا جواب « لما يا أمي ؟ لما هدمت الذكرى برعونة غير مبررة ؟ لماذا استهترت بحاضرنا و بأي حق أغلقت باب الغد ؟!

هل صدق خميس فيما قاله ؟ ربما يعرف أكثر باعتباره الأخ الأكبر . طريد جنتك . الهارب من واقعك المهين . المتهم بكل جريمة . المسئول عن كل إثم . حدثك

نداً لند . بادلتيه كرهاً بكره . وكأنك لم تنجبيه . وكأنه لم يذُق طعم أمومتك .

أول من أعلن كره الأب . أول من حدثنا عن خصال لم تقصِّها علينا . دافعتِ عن روايتك بشدة وعنف لم نعهدك بهما . دافعتِ ولكن بعينين تخشى انكشاف ما ستره الزمن .»

***

وها هي نجاة . شاردة كأخوها سالم . لكن شرودها يزيدها براءة وعذوبة .خيّم الحزن منذ أيام على عينيها الحبيبتين لكل رائي . أطفأ بعض النور . لكن أبداً شمسها لا تغيب .

من أين لك الحزن يا فرحة البيت وبهجته ؟ كيف عرف طريقك وقد فُطِمت على السرور ؟ حتى آخر العنقود تطولها يد الكآبة ! ما الذي أصابك يا زينة البنات ؟

البنات ، نعم . تخفي السر في قلبها المكلوم . تقول لنفسها «كنت زينة البنات حقاً . كنت أضحك بلا رقيب . كنت أفرح بلا اكتراث .

كنت فتاتهم المدللة . صغيرتهم التي لا تُلام . التي لا يُرد لها طلب . التي لا تحمل ملعقة كي تغسلها . أحمل اليوم هماً يكاد يهشم عظامي .

من الذي جاء بهذا النطع ليتزوج بأمنا في النهاية ؟! من الذي عرّفها وعرّفنا به وأدخله بيتنا فتقرّب من كل واحد منا بطريقة تناسبه ؟ منحني الهدايا والحلوى والفسح حتى خُيّل إليّ أن أبي الذي لم أره قد بُعث من جديد ليعوضني عن دفئه الغائب .

تقرب أيضاً إلى الأخت الكبرى . الانتهازية الكبرى .. أشجان . جذب زوجها بعمل أفضل لديه. غمر بيتهما و أبناءهما بمال وفير حتى قدسوه . صاروا يتحدثون باسمه ويتناقلون بين الناس أخباره وحكمته النادرة وكرمه الفياض وأدبه الجم وشجاعته التي لا تماثلها شجاعة .

وهاهما اليوم يردان شيئاً من جميله ويقفان كل في ناحية لاستقبال المهنئين . مبروك زواج أمك يا أشجان . لعنة الله عليك وعلى كل أخت مثلك .

حاول التقرب إلى سالم . لم يفلح . عامله رجلاً لرجل ، رأساً برأس . استحسن سالم بعض مواقفه فى حينها ولكن لم يبالغ في استحسانه. لم ينبهر ولم يقتنع بأبوته المزيفة .

من الذي عرفنا به يا نجاة ؟!

خميس ولا أحد غيره .ألم يكن صديقك الذي أتيت به يا أخي لرعاية الأرض .فابتلعك وابتلع الأرض في بطنه القذرة . دخل بينك وبين أمك حتى لفظتك من قلبها .استغل غباوتك المعهودة وعندك المتوارث . واستغل خبرته في ملاطفة السيدات اليائسات . وأمك بلا رجل منذ زمن . وأنت طماع يا خميس . أردت كل شئ فضيعت كل شئ . وأول ما خسرت كان أخيك سالم الذي قاده قول الحق ليقف بجوار أمه ضدك .. ضد أخيه . سامحك الله على ضياع الأرض وضياعنا معها .

أما أنت فافرحي يا أشجان . أطلقي الزغاريد فهذا عرس أمك . لكنك يوماً لن تطلقيها لأختك الصغرى . ألا تشعري بجرحي الذي لن يلتئم ؟ أكان لابد أن تري دمي المهدر بغير زفاف ؟ أكان لابد أن تريني وأنا أحاول إزالته من فوق بلاط الحجرة البارد فيختلط بدموعي . فأجفف الدمع مسرعةً قبل أن يجف دمي . أكان لابد أن تلملمي ثيابي الممزقة بفعل هذا الحيوان الذي تزفِّيه اليوم إلى أمك ؟»

***

ارتفعت أصوات الطبول والمزامير . وازدحمت ساحة العرس بأناس اشتاقوا للهو والهزل . تجمعوا حول المطربين والراقصات . بينما تاه الأبناء في زحام المنتشين .

تقدم العريس بجلبابه السمني وعمامته الزرقاء في موكب من الخيول. حوله رجاله مطلقين أعيرتهم النارية في فرح وزهو .

ثم جاءت العروس الأم . قمرٌ يتهادى في هودج يحمله جمل عجوز كان لزوجها من قبل . في عيون سالم رهبة وفي قلبه انقباض . قال لها من قبل لستِ بحاجة إليه. قال لها إن الشهم لا يسأل عن مقابل لشهامته. قالت أحبني وأريده. قالت أنها والأرض بحاجة إليه في ذلك الظرف العصيب . رجاها أن تعيش حرة . أن تزرع الأرض بأيد أبنائها . قالت كلكم خميس . قالت لست بحاجة لمن يزرع . بحاجة لمن يحمي .

هل ترحل الأرواح قبل استسلام الجسد ؟ هل تفنى الأنفس كمداً قبل توقف الأنفاس ؟

رحل سالم قبل أن يُطلق العيار الطائش . رحل قبل أن يراها بفستان الزفاف . رحل منذ عقدت العزم وأعلنت الموافقة .

اضطرب الحفل . سقط شهيد الزفاف على أنغام الدف والمزمار . أحاطه الأهل في دائرة حزينة عاجزة . سكنت الرصاصة بقلبه المهموم .لم يستطع العريس أن يخفي فرحة عينيه . قال بصوت عالٍ جاهد ليخرجه مناسباً للحدث : خميس هو القاتل ، قتل أخيه كي يرث نصيبه .

أبَى سالم أن يغادر قبل أن يظفر بنظرة من عيني أمه الدامعتين . فَرِح لحزنها عليه . وكأنه سيرحل بقلب راضٍ مطمئن . و دون أن ينقل عينيه عن أُمه ، وجّه كلماته الأخيرة إلى صاحب العرس وقال : خميس أشرف من أبيك .

وفي عيون الناظرين سؤالاً محيّراً :

تُرى هل يستمر العرس رغم ضياع الأبناء ؟!

***

مارس ٢٠١٤

جمال لا يدوم

لمحتها ذات مرة من نافذة الفصل تجلس وحيدة وبيدها المصحف الشريف. بعد انتهائها من القراءة قبّلته ورفعته فوق رأسها ثلاث مرات. دَخَلت عليها بابتسامة مستفهمة،فضحكت مرتبكة وقالت أنها إذا أحبت شيئاً قبّلته، ومن أحق من القرآن بالحب والتعظيم ؟،وحكت لي أنها انتهت ذات مرة من رواية أعجبتها لعبد الرحمن الشرقاوي،فطوت بعدها الكتاب دون قصد وقبّلته،وكادت ترفعه وقتها فوق رأسها فانتبهت وضحكت. ضحكت مرة أخرى ضحكتها الطفولية المبهجة.

تلقائية، بسيطة، تُحب الحياة وتحبها الحياة من كل قلبها .صديقة الطفولة، وزميلة الدراسة التي امتدت حتى الجامعة، وكَفَتنا من بعدها الصدفة بلقاءات عابرة داخل قاعات المكتبة. وما أجمل لقاء اليوم عندما أعارتني رواية نجيب محفوظ التي فقدت الأمل فى أن أجدها على أرفف المكتبة بعد بحث طويل. شكرتها وغادرت إلى المستشفى لزيارة عمي المريض .وفى الطريق استعدت بعض الذكريات التي تنعش القلب ، والتي شاركتني إياها بقصد أو بدون ، بالضبط كما شاركتني حُب نفس الأفلام والكتب ، وحُب صوت العود وأغاني عبد الوهاب ، وعشق رائحة الفُل. لكننا لم نتشارك أبداً حُب الحبيب لحبيبته !. لم أراها من قبل في تلك الصورة. هي الصديقة وحسب . هي الزميلة القديمة والدائمة. لكن حبيبتي ستكون صورة أخرى بلا شك. ففتاة أحلامي أتخيلها دوماً تشبه لنجمة سينمائية بعينها، أعشق أفلامها الكلاسيكية،وعينيها الساحرتين اللتين لم تنعم السينما العربية بمثليتهما. أذوب في نظرتها الخالدة التي جمعت عبث الطفولة بدلالها الأنثوي. وأنا لست وحدي، فما أكثر المفتونين بتلك النجمة التي كانت فتاة أحلام جيلها وأجيال أخرى تلت. أما صديقتي العزيزة، فبرغم توافقنا الشخصي والثقافي، وبرغم خفة روحها وذكائها إلا أني لا أملك أن أمنع نفسي عن رؤيتها بعينيّ الرجل،مادام الأمر يتعلق بالحب والارتباط. فهي متوسطة الجمال-وقد لا يكون لها ذنبٌ في ذلك-وهي قصيرة القامة ونحيفة بعض الشئ-وقد لا تكون مسئولة عن ذلك- أما أنا فمسئول

عن نفسي. وأدرك أن نفسي هذه تهفو دائماً إلى لذيذ الفاكهة التي لا تملك صديقتي منها إلا قضمة.

توقفت بسيارتي فى الطريق إلى المستشفى واشتريت لعمي باقة ورد في غاية الجمال. واشتريت لنفسي مجلة فنية أتسلى بها في توقف الإشارات. كان غلاف المجلة صورة فاتنة لراقصة مشهورة وتحتها عنوان»ازددت جمالاً بعد طلاقي الثامن». داخل المجلة صور لبعض الفنانات في مهرجان سينمائي وهن يتبخترن في فساتين..على ما أظن. أغلقت المجلة عندما فتحت الإشارة،وعُدت أفكر في أمر الطلاق الثامن وهل هو السبب وراء ازديادها جمالاً أم أن زيارتها الثامنة لعمل جراحة تجميل مثلاً هي السبب؟،وهل تقوم مراكز التجميل هذه بإعطاء شهادات ضمان وصلاحية للسيدات عقب العمليات؟، وهل تقوم تلك المراكز بعمل صيانة دورية؟وإذا صح ذلك فبما أني مهندس صيانة وخدمة ما بعد البيع فهل ثمة وظيفة خالية هناك؟

وصلت للمستشفى أخيراً،وتركت سيارتي بالجراج. رأيت وجهاً من بعيد لرجل عجوز يستند على البوابة الخارجية للمستشفى، وحينما اقتربت اكتشفت أنها سيدة مسنة ! كانت ترتدي ملابس بألوان لا تناسب عمرها الذي بلغت أرذله محاولة أن تُظهر-به وبشعرها القصير المصبوغ- أنوثة دُفِنت وانتهت بلا رجعة. سبقتني العجوز إلى الباب الداخلي وبيدها شاب تستند عليه . دَخَلَت والجميع كانوا يبتسمون فى بلاهة وسرور من يظهرون خلف لاعبي كرة القدم أثناء التصوير. حيّت السيدة جميع الواقفين بكلمات قليلة خرجت من فمٍ رحلت عنه أسنانه،وركبت المصعد .. واختفت. تابعتها حتى غابت عن العيونً المحملقة ، وأنا لا أفهم المشهد !

سجلت اسمي بدفتر الزائرين وسألت موظف الاستقبال مُتصنعاً عدم الاهتمام :من تكون هذه السيدة؟

صفعني بإجابته ، وصدمني بحروف تحمل اسم صاحبة العيون التاريخية الساحرة !.

تملكني إحساس بالخوف و الوحشة لا أعلم مصدره. صَعَدت مَذْهُولاً إلى غرفة عمي وبرأسي أسئلة لا علاقة لها بالزيارة التي قطعت الطريق من أجلها .أستعيد صورتها عند المصعد وقد تهدلت مفاتنها بعدما ازدادت سمنة وشحب بياضها القديم .حتى عينيها كانت تخفيهما خلف نظارة طبية سميكة. أخذت أقارن بين تلك الصورة ومشاهدها السينمائية التي أحفظها عن ظهر قلب. أتساءل أهذه فتاة أحلامي؟! أهي التي غنّى لها عبد الحليم؟ هل هذه ملكة جمال مصر في زمن الجميلات؟ كيف ذبُل الحُسن الذي قارنته بأخريات لم يفلحن حتى فى المنافسة؟!

ودّعت عمي عقب زيارة قصيرة وألقيت نظرة أخيرة على الورد الذي حتماً سيذبل. غادرت بقلب تسكنه غربة طفل ضاع من يد أمه فى زحام وجوه تخدعها المظاهر،ويسرقها الوقت بأحلام زائفة.

خرجت من المستشفى عازماً على ألا أعود .. ألا أنظر إلى البوابة وألا أمر من هنا مرةً أخرى.

في سيارتي اطمأن قلبي وتبددت وحشتي بقراءة بعض آيات الله ، ووجدتني أُقبّل المصحف وأرفعه فوق رأسي ثلاثاً،واشتريت في طريقي عقدين من الفُل .. واتجهت إلى المكتبة .

***

أبريل ٢٠١٥

ورق عنب

صعدت نهى فى خفة إلى سطح المنزل ، واقتطفت بعضاً من أوراق العنب الناضجة الموجودة فى التكعيبة التى صنعها زوجها طارق منذ فترة .

عندما عاد الزوج من عمله منهكاً من زحام المواصلات وجد زوجته انتهت من إعداد مائدة الطعام التي يتوسطها طبقاً ممتلئاً بمحشي ورق العنب الشهي .

استقبلته بابتسامة واثقة وقالت : عملت لك ورق العنب اللي بتحبه .. وطازة كمان .

فقال طارق متوجساً : اشتريتيه النهارده ؟!

فردّت ببراءة : قطفته من فوق السطح .

فقال منزعجاً : بوّظتي التكعيبة !

- ورق العنب كان مستوي .. قلت أعمل لك طبق جنب الكرنب .

- كرنب إيه ومحشي إيه .. انتِ عمرك ما هتفهمي .

- أفهم إيه ؟!

- أنا عامل التكعيبة دي منظر طبيعي .. أطلع أرتاح تحتها من هم الشُغل و عينيّ تشوف حاجة حلوة، مش عشان تعمليها محشي ! ميت مرة أقول الأكل مش كل حاجة .. بس مين يسمع ، مين يحس ؟!

- انت قصدك إني ما بحسش ؟

- يا شيخة بقى ..

فردّت نهى وهي تحبس دموع عينيها : أنا غلطانة أصلاً إني فكّرت فيك ..

فقال طارق بتحدٍ : أيوه غلطانة ..

بس عمرك ما فكرتي فيّ ، وعمرك ما فهمتيني ، ولا عمرك هتفهميني .. ودي مش أول مرة . فاكرة العصفورين اللي جبتهم لك فى عيد جوازنا اللى فات وأهملتي فى أكلهم لحد ما ماتوا ! وفاكرة حوض السمك اللى اشتريته عشان عيد ميلادك قبل اللى فات وبعدها بأسبوعين قلتي لي إنك إديتيه لابن أختك عشان شبط فيه ، ولما عاتبتك قلتي لي إنك هتدفعي لي تمنه عشان مازعَلش !

فاكرة يا نهى ولا أنا بفتري عليكي .. فاكرة بوكيه الورد الحزين بتاع كل شهر اللى عمرك ما حنيتي عليه وسقيتيه .. عشان يعيش .

فأرادت نهى أن تستفزه أكثر وقالت بسخرية : معلش أصلي نسيت إنك شاعر !فرد بصوت مختنق : أيوه شاعر .. وكويس إنك فاكرة ، مع إن عمرك ما سألتيني بتتنيّل تكتب إيه ولا فكرتي تشجعيني حتى.. كأني عايش فى وادي وانتِ فى وادي ! أنا بحب الشعر وانتِ بتحبي تتفرجي على المصارعة .. بحب الروايات وانتِ عمرك ما فتحتي غير كتاب الطبخ . يا شيخة بقى.. لم تحتمل الصمت أكثر من ذلك وقالت بتحدٍ لا يمنع دموعها من التدفق : خلصت محاضرتك؟ ماهو كتاب الطبخ ده بفتحه عشان تاكل انت وعيالك ولا أنا بطبخ لأمي .. ما أنا عاملة زي الجاموسة اللى مربوطة فى ساقية وزي ما عندك شغل عندي شغل برجع منه مهدودة وببقى بإيدي و سناني فى البيت عشان تلاقوا لقمة الغدا و تلبسوا هدومكم نضيفة . وانت تقول لي ورد وعصافير .. إيه متجوز فاتن حمامة ولا فاكر نفسك عمر الشريف؟! الناس اللى بتشوفهم فى الأفلام والروايات دُول مش موجودين فى الحقيقة . مفيش واحدة بتقف تطبخ وهيّ حَاطّة روج ولا فى ست بتنضف بيتها وهي حَاطّة بيرفيوم يا فنان !

رد طارق فى يأس : أنا لا عايز ده ولا ده ، ولا لازم تبقي فاتن حمامة عشان تفهميني وتبقي رومانسية . وكفاية كلام لحد كده ، مش عايزين العيال يطلعوا معقّدين .. أنا داخل أنام .(ثم نظر إلى مائدة الطعام)كلي انتِ ورق العنب.

فترد فى غضب : هو انت تعفرتني وتقول داخل أنام ..

ولم يمنعها من استكمال الشجار إلا جرس التليفون الذي ذهبت لترفع سماعته وترد على أمها.

الأم : مال صوتك يا نهى ؟ انتِ بتعيّطي ؟

- متخانقة مع طارق .. خرّجني عن شعوري ودخل نام كالعادة !

- انتِ عملتي إيه يا نهى ؟

نهى (و هي تمسح دموعها و أنفها) : عملت ورق عنب .

فترد الأم : وماعجبهوش ؟!

نهى : لأ .. حضرته عاوز رومانسية .

فتنصحها الأم بصوت عاقل : طيب ما تعيطيش يا نهى .. انتِ عارفة طارق يطلع وينزل على مافيش، وبكلمة طيبة منك هيصفا .

نهى (بانفعال) : يا ماما لو سمحتي أنا ماغلطتش فيه عشان أروح أصالحه .

الأم : البنت الشاطرة تحافظ على بيتها يا نهى ، ولا انتو هتخيبوا بعد ما خلفتوا عيلين .

نهى : يا ماما لو سمحتي ..إيه المطلوب مني يعني دلوقتي ؟

الأم : انتِ احتياطي فككي كيس لحمة مفرومة على ما أشوف لك الرومانسية دي بتتعمل إزاي ؟

***

يوليو ٢٠١٣

فُرصة سعيدة

الاسم:محمد حسن عبد التواب.

السن:خمسة وعشرون عاماً.

المهنة .. عاطل منذ عامين قضيت أحدهما في أداء الخدمة العسكرية.وما أدراك ما الخدمة العسكرية ! واليوم فَتَح الله عليَّ بفرصة فى شركة مشهورة تعمل فى المجال الذي تخصصت به وأحببته منذ دراستي الجامعية ، وقرأت وذاكرت الكثير عنه حتى بعد الدراسة .

يا فرج الله .. ساعتان تفصلان بيني وبين موعد مقابلة العمل . ساعتان بيني وبين الوظيفة التي أعددت نفسي لها لتكون طوق النجاة من بحر الفراغ القاتل. ساعتان على بداية الطريق الذي أبحث فيه عن حلم جديد يعوضني عما تبدد من أحلام سابقة.

لا وقت لهذا يا جدتي .. لا وقت لهذا يا خالي ..ما أكثر الخلافات التافهة التي تقودنا إلى أزمات أكبر وأعقد!. اهدأوا واسمعوا لبعضكم،فجدتي لم تقصد إهانته والتلميح بأنها تُنفق عليه منذ تم تسريحه مع بعض زملائه في العمل بحجة العمالة الزائدة. لم يدرك خالي أنها ترغب فى التهوين عليه ومحاولة نصحه بالبحث عن عمل آخر،بقلب أم تخشى عليه من الأيام التي تجري ويشيب معها شعره وينقص بها عمره. استعيذوا بالله من الشيطان الرجيم.. واستغفروا ربكم .. اللهم أصلح بيننا. قبّل يدها وقبّلت جبينه،وزقزق العصفور .. البارز من ساعة الحائط ليعلنها الرابعة !

باقي من الزمن ساعة !

موقف العربات الأجرة شبه خالٍ من العربات .. مكتظ بخلق الله !

جيزة يا ريّس .. جيزة يا عمّنا .. الساعة الرابعة والرُبع . لن أصل فى موعدي

مهما حدث .. سأتصل بالشركة آملاً فى تأجيل الموعد . ردّت السكرتارية بالموافقة على تأجيل الموعد للخامسة والنصف .. صارت ساعتي الرابعة والنصف..جيزة يا أسطى..لبنان..لبنان لبنان !. أسرع أكرمك الله..السيارات أُصيبت بشلل،وأنا أُصبت بيأس من اللحاق بموعدي. صارت الساعة الخامسة ولم نجتاز من الطريق إلا القليل!.

يبدو على أغلب الركاب اعتيادهم وتأقلمهم مع الزحام ، فبعضهم مستغرق فى النوم ، والبعض الآخر يثرثر بلا مبالاة أو اعتبار للوقت الذي يُقتل . وآخرون يحملقون فى السيارات الخاصة الفارهة ويحسدون من بداخلها،ويجهلون حقيقة أن الأمر بحاجة لطائرة خاصة،فكلنا مُعطّلون فى نفس الإشارة.أبدو وكأنني الشخص الوحيد الذي يتعجل سير الأمور ويرفض هذه الحال التي لم تعُد تحتمل صبراً..فقد صارت الخامسة والرُبع!.

ضاعت الوظيفة المُنتَظَرَة .. وضاعت الحبيبة المُنتَظِرة !

ما كان ينبغي أن أُضيّع ساعة كاملة فى الإصلاح بينهما .. يارب لا حول لي ولا قوة إلا بك..»ومن يشفع شفاعةً حسنة يكن له نصيبٌ منها». وأنا أريد نصيباً زهيداً، فقط بداية تمنحني سبباً للعيش.

ها قد وَصَلْت إلى نقطة مُرضية ووَصَلَت معي الساعة إلى السادسة إلا عشر دقائق..انتهى الأمر بلا شك!

لكنني سأحاول ..

وبالتأكيد لن أخسر أكثر مما خسرت من قبل .

-تاكسي .. مجلس الدولة .

-تحب تروحُه منين ؟

-أقرب طريق .. الله يكرمك .

-وَصَلنا ..

-خلي الباقي علشانك .

الساعة السادسة والرُبع .. كيف سأُبرر تأخيري عن موعدي الأصلي بساعة ورُبع الساعة ؟!

صعدت إلى الدور الحادي عشر،وخرجت من المصعد إلى الشقة المقابلة لأجد السكرتيرة عابسة لا تنطق إلا بكلمات محددة «فين السي في..اقعد..إستنّا لمّا نِندَه على إسمك» ،وكأنها صوت مُسجل يعيد نفس الكلمات البخيلة على كل الشباب الطامحين فى الفرصة السعيدة. جلست بجوار ثلاثة شباب آخرين وكلنا نرتدي «بدلة الإنترفيوهات» ، ونُراجع فى أذهاننا إجابات الأسئلة التي حتماً ستُسأل «ما الذي يجعلني أختارك للوظيفة؟ .. قل لي ثلاث مميزات وثلاث عيوب في شخصيتك؟..أين ترى نفسك بعد خمس سنوات؟». بالنسبة لي فأنا مستعد تماماً بإجابات صادقة لكل هذه الأسئلة،فيما عدا السؤال عن مكاني بعد خمس سنوات، فهو أمر فى علم الغيب. دخل الجميع واحداً تلو الآخر ولم يتبقَّ سواي. أثناء انتظاري سمعت صوت المدير يُعنّف السكرتيرة عندما دخلت عليه بالملف الخاص بسيرتي الذاتية،فأيقنت أنني رُفضت قبل أن يراني،فلم يقتصر الأمر على تأخيري عن الموعد الذي حدده للمقابلة،بل يبدو أنه اكتشف خطأً ما فى ملفي الذي أعددته بعناية!.هممت بالخروج حفظاً لماء الوجه،فنادتني السكرتيرة بوجه مبتسم غير الذي كانت ترتديه،وأشارت إليّ أن أتبعها إلى غرفة المدير،وأثناء ذهابي إليه مررنا على مكتب مُجاور يجلس فيه رجل آخر يُعنّف شخصاً ما بالتليفون بنفس الصوت الذي كنت أسمعه وأنا بالخارج ! وصلنا إلى مكتب المدير فصافحني بابتسامة،وقال : (أنا آسف إني أخّرتك انت وزمايلك اللي قبلك..الطريق كان واقف وما وصلتش الشركة غير الساعة ٦..بكرر أسفي يا محمد). تنفست الصعداء وقلت بثقة:لا ولا يهمك.. فرصة سعيدة.

***

يناير ٢٠١٥

كعادتنا

كعادتنا مساء كل خميس التقينا في مقهى (الدكة) الكائن في منطقة وسط البلد. تبادلنا كأصدقاء الأسئلة عن جديد كل منا خلال الأسبوع المنقضي. وكعادتنا أيضاً نضحك أكثر مما نتكلم، ولا نكمل الحديث في أي موضوع حتى نهايته. ليس فقط لأن الموضوعات لا تنتهي ولكن لأننا هجرنا الجدية منذ سنوات. فصرنا نلتقي لنفرغ أرواحنا من ملل الأيام الرتيبة.

بعد استهلاك كل منا لأكثر من مشروب فوجئنا بحسين صديق الكلية –الذي لم نره منذ تخرجنا – يقف أمامنا بابتسامته المألوفة. دعانا إلى الجلوس معه حيث كان يجلس مع أصدقاء آخرين حول طاولة أخرى على رصيف المقهى. خرجنا وبعضنا يحمل فنجان قهوة أو كوب شاي أو نارجيلة . عرفنا حسين على أصدقائه وعرفهم علينا. ولفت نظري اسم أحد أصدقائه-(مينا)-والذي ذكرني بإسم صديقي الشخصي ورفيق المرحلة الثانوية(مينا رضا). ذلك الخلوق الذي كان حينها أقرب أصدقائي ولكن قلت بالتدريج لقاءاتنا بعدما تركت بيت شبرا وبعدما التحق كل منا بجامعة مختلفة. فانحسرت اتصالاتنا في تهنئة بعضنا البعض بالأعياد والمناسبات. رغم أن الذي يربطنا أكبر من ذلك بكثير. وقلت لنفسي أنه لولا تأخر الوقت وارتفاع الأصوات من حولي في المقهى لاتصلت بمينا الآن لأطمئن عليه بلا مناسبة. فأجلت ذلك لصباح اليوم التالي .

جاء النادل وزاد مجلسنا بطاولة أخرى وأعاد السؤال على كل منا عن المشروب التالي. انشغلت بحوار جانبي مع حسين وانتبهنا بعدها إلى أن كل الجالسين صامتون منصتون لحديث يتبادله مينا وعمر أصدقاء حسين عن مجموعة بنات تعرفا عليهن في حفل (jazz)جاز. ومع الوقت تعددت اللقاءات بينهم إما في نادي أو كافيه أو في حفلات أخرى. لكن عمر استقل بالحديث وبدأ يلمح إلى أن بعضهن يتمنين لقاءه في غير الأماكن العامة. فأكمل مينا كلام صديقه بأن كل بنات هذه الشلة على حد تعبيره «عايزين !» . فعاد عمر يصف كل منهن على حدة وصف تفصيلي يليق بخبير. يحكي وتتعالى ضحكات الجميع.

يحكي عن مواقف حدثت مع بعضهن في المصعد، أو عندما سقط قرط من أذن إحداهن في سيارته فانحنت إلى أرضية السيارة غير منتبهة-أو منتبهة !- لبلوزتها الواسعة المفتوحة التي كشفت مع انحنائها عن نحرها وما يليه. يعض على شفته السفلى ويكور كفيه ويمدهما أمامه ويقول أنه تمنى حينها لو حدث نفس الموقف مع (كريستينا). لاحظت تغير نظرة مينا وانسحابه تدريجياً من الحوار. فانفرد عمر بقص عدد من المواقف التي حدثت له مع كريستينا بل ويذكّر مينا بنظراتها النهمة لكليهما في عيد ميلاد (زينب) صديقتهما. ومينا لا يرد بجملة كاملة. وبعد برهة قطع حديث عمر بنبرة بها بعض انفعال وسأله عن رأيه في زينب، التي خمنت بدوري أنه ذكرها بالتحديد لكونها مسلمة ويريد مينا بسؤاله عنها أن يستفزه ليوقفه عن هذا الحديث الجنسي الذي بدآه سويا قبل أن ينتبها لنخوتهما الغائبة. حاول البعض تغيير الموضوع، ولكن مع الوقت يعود عمر للكلام عن كريستينا أو يعود مينا لقص موقف مشابه عن زينب وكلاهما لا يكترث لكم البذاءة التي يستخدمها في حديثه لدرجة أن نادل القهوة استغل سخونة الأجواء وفاجأنا بوقفته بيننا مستمتع بالحوار وأخرج من جيبه كوتشينة عرض علينا تأجيرها والتي لم تكن خلفية أوراقها سوى صور جنسية. فقال له البعض ضاحكين بأنه يكفينا الخيال الذي يصاحب حكي مينا وعمر. انسحبت مع (عصام) صديقي بعدما ألقينا السلام على الجميع، وبعدما ضايقنا ما آلت إليه السهرة التي ننتظرها طوال الأسبوع. وعند قيامنا اعتذر إلينا حسين بعدما لاحظ نفورنا من الحديث منذ البداية.

في اليوم التالي وبعد عودتي من صلاة الجمعة. أمسكت بهاتفي للاتصال بمينا صديقي كما قررت في اليوم السابق. ففوجئت بخبر في التلفاز عن حادث طائفي مساء أمس بمنطقة وسط البلد راح ضحيته ثلاثة شباب. وراعني رؤية بعض رفاق الأمس في خلفية الخبر. فوضعت هاتفي جانباً وأجلت الاتصال بمينا إلى أقرب مناسبة سعيدة .

***

أغسطس ٢٠١٧

رائحة المكان

دخل بقلب مفعم بالأمل ، تعانقه حرارة البدايات .

وبعد الدخول ، هاجمته رائحة كريهة لم يستطع تمييز إن كان مصدرها اتساخ المكان عديم التهوية ، أم أجساد الراكدين فيه بلا حركة .

اليوم ..

هو يجلس بينهم ، ويرحب بالقادمين .

***

أغسطس ٢٠١٧

من يشتري التفاح ؟

اشتَهَرت منذ زمن عبارة غزل بالعامية تسأل في تعجب : «هو القمر بيطلع الصبح ؟!» . وكثيراً ما رآها عبارة ركيكة وسخيفة . فالقمر في أصله ليس رمزاً للجمال ، كما أن الشمس - التي لا يملك القمر سوى أن يعكس آشعتها ليلاً - موجودة وتغمرنا بضوئها طوال النهار.

لكنه في ذلك النهار البعيد - الذي مرت عليه سنوات - تلاشت مبرراته العلمية الجامدة وأدرك عمق الجملة وما بها من إحساس عفوي صادق ، عندما ذهب (يوسف) مع أبيه عقب صلاة الجمعة لشراء بعض الخضروات والفواكه من عم (طه) الذي يقع دكانه على ناصية الشارع .

كان يقف بجوار والده الذي يتفحص الباذنجان و الطماطم حينما هلّ القمر بنوره الأبيض الصافي متجسداً في ثوب بني وقور محكم الأزرار على قوام بَضّ ممتلئ بلا عيوب ، وحجاب بلون البحر يُبَرْوز وجهاً تسكنه عينان عسليتان تأسراك بلا شفقة فتستسلم عن طيب خاطر، وأنفٍ توحي بسمو و كبرياء أميرات من زمن الأساطير!

في خطوات لا يُسمع أثرها تقدمت اليمامة البُنيّة و سألت البائع بنبرة هادئة رقيقة : بكام التفاح؟.. فأجاب : ٢٠ جنيه الكيلو ، فرَدّت بابتسامة طفولية : شكراً ، وغادرت المكان بخطوات سريعة .. واختفت كنسمة عابرة !

تعجب الرجل وقال مستنكراً: بقى لها فترة تيجي ما تسألش غير عن التفاح.. بكام.. بكذا.. شكراً، وتمشي كأنها جايه تطلع لي لسانها.. هتفرسني البت دي!

فرد عليه والد يوسف: يمكن نفسها في التفاح يا أخي .

فأكمل البائع: وهو ٢٠ جنيه كتير.. دي الطماطم وصلت في أماكن ل ١٥ جنيه.. ممعهاش ما تجيش كده زي الشحاتين!

استُفِزّ يوسف لعجرفة البائع الذي أفسدت كلماته الجو المنتشي برحيق فتاة التفاح، وأراد أن يتدخل ويعنّفُه لكنه آثر أن يحافظ لنفسه على سرورها الداخلي ، وقال في سره ضاحكاً أنه لو كلّم الرجل فسيقول له : لعلمك بقى يا بتاع التفاح لون تفاحك راح في خدود ست الكل!

مرّ يومان و تكرر المشهد أمامه في السوق الذي ذهب إليه صدفة ! لكنه في هذه المرة رأى الحزن في عينيها مما زاد من شعوره نحوها بالشفقة. عاد إلى بيته و ظل يفكر في أمر الجميلة البائسة حتى غلبه النوم. فلما نام حلم بها ، وتكرر الحلم عدة أيام . ثم تنوعت الأحلام .. ولم تتغير البطلة. و رآها ثالثةً وهو عائد من الجامعة ، وكانت تمد خطواتها مسرعة في نهاية الشارع أمام عربة كارو يجلس فوقها عربجي يعاكسها بألفاظ خادشة ، مما دفع يوسف أن يجري حتى لحق به واستوقفه و تشاجر معه فضربه العربجي بعصا حديدية أصابت رأسه الذي ظل ينزف، وهو يتابع فتاة التفاح تبتعد مسرعة دون أن ترى شيئاً من مشهد البطولة .

ثلاث مرات في نفس الأسبوع ! وكانت الرابعة في الأسبوع التالي ، عندما ذهب وحده إلى عم طه ليشتري بعض الفاكهة للمنزل وبالأخص التفاح الذي أصبح يفضله عن باقي الفواكه .

رآها تدخل بوجه أكثر حزناً ، وتعيد نفس السؤال ، وتحصل على نفس الإجابة باهظة الثمن بالنسبة لحالها و حال الكثيرين من عشاق التفاح . وفى هذه المرة خرجت بخطوات بطيئة وكأن قدميها محملة بالأثقال التي تَشُقّ على صاحبة القلب الرقيق. تردد يوسف طويلاً ثم قال لنفسه : يعلم الله حسن النوايا . فتقدّم خطوة نحوها ومدّ يده بتفاحة لا تقلّ عنها جمالاً وقال لها بصوت مهذب : اتفضلي . نظرت إليها بنصف ابتسامة ثم قطّبت جبينها و تحجّرت الدموع فجأة في عينيها البريئتين، ومدّت يدها بقوة و أسقطت التفاحة من يده على الأرض ، وخرجت دون أن تنطق بكلمة ! .

داهمه عم طه قبل أن يفيق من الصدمة ، وقال له بنبرة توبيخ لم يقوَ يوسف

على صدّها : ده محل محترم وانت ابن راجل محترم ، أما تعوزوا حاجة خلي الحاج يكلمني ، أو يشرفنا بنفسه، أما انت مش عايز ألمحك هنا تاني يا شاطر ! تمنى أن تنشق الأرض وتلتهمه بلا عودة. جف حلقه واختنق برغبة في البكاء لكن دموعه لم تسعفه. سار واجماً إلى بيته يؤنب نفسه على لحظة الطيش ويلوم نواياه الطيبة. مكث في البيت بضعة أيام خشية أن يراها أو يرى نظرات الشماتة غير المفهومة من عيون المعلم طه وأخيه الصغير (متولي)-ذلك الشاب الملتحي الصامت-الذي شاهد هو الآخر سقوط التفاحة دون أن يعلق. في النهاية اتخذ قراراً بأن يرحم نفسه ويعتقها من التأنيب. قرر أن يكرهها ولا ينظر إليها إذا مرت بجواره. دعا الله أن يجمعهما مرة أخرى كي لا ينظر إليها.. كي يلقنها درساً، أو ينظر إليها شزراً.

لكن الله لم يجمعهما، بل جمعها بمتولي أخي المعلم طه، وزُفّت إليه في عرس كادت أناشيده الدينية يومها تخرج يوسف عن دينه لارتباطها في ذهنه بإحساس الهزيمة. مرت الأيام والسنين بسرعة البرق، لكنها فاتت على صدره بأقدام ثقيلة. يقف أمام المرآة يتابع شعر رأسه الذي يتساقط يوماً بعد يوم، وشعر وجهه الذي نما بكثافة، ويتحسس العلامة التي خلفتها عصا العربجي على جبينه. أما هي ، فلم يعد يراها في الشارع .. لم يعد يراها إلا في أحلامه.

***

في إحدى الزيارات الشهرية لأم حمدي - التي تقوم بتنظيف بيت عائلة يوسف- سمعها تحكي لأخته الكبرى عن فتاة التفاح! عرف اسمها لأول مرة، عرف ما عانته في السنوات الماضية.بعد زواجها من متولي الذي ورث دكان أخيه،تبدلت أحواله وقاطعه أهل الحي لغلاء أسعاره وسوء معاملته لهم،حتى باع محل الفاكهة.لم يكن متولي قادراً على الإنجاب فطلب أهلها لها الطلاق لكنه رفض بشدة.لجأوا إلي ابن عمتها الضابط،الذي استطاع بطريقته أن يجبر متولي على تطليقها. ثم كافأه أهلها بزواجه منها عقب انتهاء العدة.

لم تتجب منه هو الآخر لكن أحداً لم يتكلم!.

رآها يوسف بعد رواية أم حمدي بأيام قليلة. شاهدها عن قرب كما شاهدها كثيرون،شاحبة الوجه،هزيلة القوام.تتحجر الدموع في عينيها وهي تستجدي زوجها ذو الوجه الأمرد المستدير.فيرد عليها بلطمة على خدها الأيمن أتبعها مباشرةً بأخرى على خدها الأيسر فسالت دموعها كطفلة لا حول لها ولا قوة. انتفض يوسف،فجذبه أحد المارة قائلاً: واحدة وجوزها.. يحق له يضربها، إحنا مالنا.

***

كان اللقاء الأخير منذ يومين .داخل المحل الذي يحمل الذكرى الأولى.

اختلس منها نظرة خاطفة فوجدها تداعب ثمرات التفاح وكأنها تريد أن تداعبه هو.تبتسم في خجل وترجو ابتسامته. ظل جامداً مقاوماً ما فاضت به نفسه من مشاعر الشوق والأسى.قال في قرارة نفسه «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» . استيأست منه وقالت لنفسها تغير ولم يعد يحب. همّت بالخروج فاستجمع قواه وهتف في رجاء غير عابئاً بمن حوله: لسه بتحبي التفاح؟ ..

لم يقولها مازحاً أو مغازلاً بل كانت صرخة تجمع اليأس بالحلم الذي لم يمت.

أدركت المعنى والتفتت عند مدخل المحل بضحكة قصيرة مهمومة ثم قالت عيناها: ليت الزمان يعود.

***

فبراير ٢٠١٦

نحو القمة

تساءل (حسام) في شرود : تفتكر المهندس مننا المفروض يزيد كام كل سنة ؟

رد (محمد) بعدما مط شفته السفلى إلى الأمام : متهيألي ألف جنيه .

-يااه .. ده يبقى كويس أوي .

-هو حوالي ألف .. أو خمسميت جنيه .

-ألف ولّا خمسميه ؟!

-لأ .. خمسميه .

-يبقوا كويسين برضو .. الحمد لله.

ثم سكت حسام برهة وعاد يقول :

متهيألي ما يبدأش بالشناوي النهارده . برضو راجع من إصابة وممكن لو حصل له حاجة نخسر تغيير.

محمد : عندك حق .. وجنش هو كمان حارس كويس .

دار الحوار بين الشابين داخل الميكروباص حينما كان يجلس محمد على الجانب الأيمن من الكنبة الخلفية ومن أمامه مباشرةً حسام جالساً على المقعد (القلّاب) القابل للثني يدير وجهه مع كل سؤال مخاطباً محمد الجالس خلفه ، وكلاهما ينتظر اكتمال باقي مقاعد السيارة حتى يتحرك السائق .

مال عم صلاح الجالس على يسار محمد على ابنته هدير وهمس قائلاً : إذا كان ممكن تصبري على فلوس درس العربي تبقي عملتي فيَّ معروف .. أسبوع واحد بس .

تنهدت البنت ثم قالت في أسف : والله يا بابا ياريت ينفع . المشكلة إننا

بنحاسب السكرتارية قبل ما ندخل الحصة .. أقول لك بلاش أروح الحصة الجاية .

-لا يا بنتي لا يمكن أخليكي تقصري بسببي ، هتروحي وربنا هيحلها .

-والله يا بابا ما هيحصل حاجة من حصة هغيب عادي وأدفع الحصة اللي بعدها .

التفت جميع الركاب إلى السائق الذي علا صوته وهو ينهر الرجل الذي صعد إلى الكرسي المجاور له :

-انزل يا بيه قلت لك اللي يقعد هنا بياخد الكرسيين .

-بس أنا واحد ، ليه أدفع اتنين ؟!

-عشان مش بركب جنبي غير واحد .. عربيتي وأنا حُر . انزل بقى ما تعطلناش عشان نلحق الماتش هناك .

قال عم صلاح في صوت يسمعه من حوله : هو اشترانا ! ده احنا اللي بندفع له أجرته .

بادرت هدير بتهدئة أبيها :

-والنبي يا بابا خلاص .. ده شكله بلطجي .

-بلطجي على نفسه . ماهو مش لاقي حد يلمّه ويقول كلمة حق .

ثم حاولت تغيير الموضوع : هو صحيح النهارده الأهلي والزمالك ؟

عم صلاح : آه الساعة ستة .

-وهنعمل إيه ؟

-عادي .. هنكسبهم زي كل مرة ، و بسكور (score) كمان .

ربت محمد على ظهر صديقه حسام وهمس له :

-الراجل اللي جنبي بيقول لبنته هيكسبونا بسكور .. شكله من أيام العهد البائد !

-عارف اللي هيختاروه النهارده أحسن لاعب هياخد إيه ؟

عربية موديل السنة دي .. خالصة الجمارك .

لم يرد محمد بل أشار إلى لوحة إعلانية مكتوب عليها « لقاء القمة « ، وتحت العنوان صورتان لقائدي فريقي الأهلي والزمالك . ثم قال لصديقه :

-شفت دي ؟

-آه .. خسارة إن شيكابالا مش هيلعب النهارده .

-للأسف .

-ما قلتليش ، المرتبات عندكم كويسة ؟

-أنا لسه ما قبضتش أول شهر ، بس المفروض إني هاخد ألف وخمسمية بإذن الله .

-كويس والله .

-وهزيد تُلتُمية بعد أول تلات شهور .

-يبقوا ألف و تُمنُمية

أنا رُحت لحد دلوقتي تلاتة إنترفيو. الأول ما قبلتش فيه عشان اتوترت . ماهو ماينفعش أتهري أسئلة من مدير الإتش آر (HR) و مدير التيكنيكال

(Technical) في نفس الوقت، لأ وعايزيني أجاوب بالإنجليزي.أنا حسيت إن المخابرات بتحقق معايا والله .

-طيب والتاني ؟

-قبلت وأنا هناك . بس المرتب ألف و متين جنيه أول تلات شهور وهيبقوا اختبار كمان، لأ وهيرمونا في موقع في الصحرا تلات أسابيع وناخد أجازة أسبوع . أنا بصراحة قلت مش هوافق إلا لو كان المرتب ما يقلش عن ألف وخمسمية ، يا إما آخد الألف و متين و أنا شغال زي الباشا في القاهرة . ومن ساعتها وأنا ببعت لشركات كتير وماحدش عايز يعبرني يا محمد .

-طيب والإنترفيو التالت عملت فيه إيه ؟

-لأ ده كان مقلب كانوا كاتبين في الإعلان نمرة تليفون وعنوان . ولا إيميل ولا موقع ولا إسم شركة ولا حاجة أبداً . دُخت على ما وصلت العنوان وطلعت ست أدوار على رجلي في عمارة معفنة بسلم أعفن منها ، ولقيت لك عيل بتاع أربعتاشر خمستاشر سنة قاعد ورا مكتب فى مدخل الشقة سألته قال لي أيوه العنوان صح ، وقال لي خطوات المقابلة إنك تملا الاستمارة في الأول وبعدين تدخل تعمل الإنترفيو في الأوضة اللي على شمالك أم باب إزاز .

قلت له : تمام فين الاستمارة ؟ قال لي : الاستمارة بعشرة جنيه .

نصباية يا معلم ! يلمّوا عشرة جنيه من كل خريج ولما تيجي تكلمهم بعد كده تسأل على نتيجة المقابلة يقولولك معلش انت مانجحتش. فقست الحوار م الأول وقلت له خلي لك الاستمارة . وكويس إني مسكت نفسي مع الواد ، بعدما دُخت ع العنوان وبعدما دفعت ستاشر جنيه مواصلات.لأ ولابس بدلة وكرافتة ويومها كان عز الحر .

-ولا يهمك .. خيرها في غيرها يا معلم .

صاح السائق في الركاب محذراً : اللي معهوش فكة ينزل يفك .. مش هفك لحد في السكة .

فاضطر أحد الركاب أن ينزل فعلاً ليبحث عن فكة لمائة جنيه، وبمجرد نزول الراكب كان السائق ينادي معلناً وجود مقعد خالٍ . امتعض الركاب من موقفه في همس :

-كأنه ما صدّق الراجل نزل قام مِركّب واحد مكانه !

-هو يعني اللي معهوش فكة ما يركبش ؟!

-دول باشوات مش سواقين ..

وبذلك لم يبق سوى المقعدين المجاورين للسائق كي تكتمل كل المقاعد وينطلق في طريقه . جاءت سيدة شاحبة الوجه رمادية الشعر تستند على صبي يشبه لها لم يتجاوز الثانية عشر ويرتدي قميص أحمر للنادي الأهلي . كانت السيدة تسعل بشكل متكرر وتسير ببطء وهي تضم كتفيها للداخل وكأنها تشعر بلسعة برد رغم الجو المعتدل في هذا اليوم .

أخبرها السائق بأنه كما قال من قبل وكما يقول دائماً -ومنذ فترة عجز المؤرخون عن تحديد بدايتها بدقة-لا يسمح بأن يركب بجواره سوى شخص واحد فقط يدفع أجرة المقعدين . وبعد طول رجاء واستجداء سمح فقط تكرماً منه بأن تركب السيدة المريضة على المقعدين المجاورين له ، و أن يجلس ابنها ذو القميص الأحمر أمام أرجل ركاب الكنبة الأمامية التي تقع خلف السائق مباشرة. اعتذر الولد للراكب المقابل له وللحظ كان رجلاً ،واستقر راضياً بموقعه الذي أذكر أيام طفولتي أنه كان المقعد المخصص لتبّاع السائق المسئول عن جمع الأجرة من الركاب قبل أن توكل هذه المهمة إلى الركاب أنفسهم .

في الطريق كان هذا الحوار ينبعث من الراديو :

المذيع : والله يا كابتن أنا شايف إن الناس عاملة أزمة من غير لازمة .

الكابتن : معاك حق .

-يعني خليني أحكيلك حكاية يا كابتن ..

أنا من تلات أيام كنت بعمل شاي ، أنا مش كييف شاي، بس يعني كوباية بالكتير في اليوم .

قلت ياض ما تجرب تشرب الشاي من غير سكر . وشربت . تصدّق بإيه يا كابتن .. عمري ما حسيت بطعم الشاي زي كده .

-لا والله ؟

-آه والله .. تحس بطعم الشاي بقى بجد زي ما ربنا خلقه مش نحط عليه سكر ونغير طبيعته .

بعدين تاني يوم عزمت ناس أصحابي وقلت لهم يجربوا الحكاية دي معايا وفعلاً عجبهم جداً وقالوا مش هنحط سكر تاني ع الشاي .

أنا مش بقول للناس تقتصد والكلام ده ، أنا بقول لهم بلاش تخافوا تجربوا ! ماهو لو خُفنا نجرب هيحصل تغيير بجد إمتى ؟

-معاك حق .

السائق : يلعن أبوك على أبوه عالم ....

وقام بتغيير محطة الراديو،ورفع صوت الأغاني الشعبية حتى كادت تصم آذان الركاب الذين اعتادوا الرضوخ للأمر الواقع.

كان الطريق الذي يزدحم فجأة دون سبب معلوم ثم تنفرج أزمته أيضاً فجأة يدفع السيارة أن تقف ثم تسير فتقف بعد خطوتين ثم تسير مرةً أخرى وفي كل مرة ترجرج من بداخلها ولاسيما ركاب الكنبة الخلفية وبالأخص هدير التي تزيدها هذه الحركة اضطراباً وتوتراً فوق توترها وضيقها وتقلصات أمعائها

التي تستثار بفعل رائحة العوادم التي هاجمتها ،عندما اضطرت أن تفتح الشباك لتهرب من رائحة العربة المكتومة وتهرب بعينيها الواسعتين من عيني أبيها اللتان تخشى أن يلمح الحزن فيهما عندما ذكرتها يُفط عيادات الأطباء التي تطل من العمارات الشاهقة بحلمها الذي صارت تخشاه . فكيف يقوى أبوها على أداء مصروفات وتكاليف الأدوات والمعدات والكتب التي ستحتاج شراءها حتماً إذا وفقها الله في الثانوية العامة والتحقت بعدها بكلية طب الأسنان ؟

لكنها كانت تعرف رد أبيها إذا طُرح عليه هذا السؤال الذي لن تطرحه بالطبع

ما يقدر على القدرة غير ربنا .. ذاكري وما تشيليش هم .

-آااه يا نافوخي .. ما برّاحة يا اسطى دماغي كات هتتفتح .

نظر السائق من خلال المرآة بتجهم إلى(راوية)ذات الجلباب الأسود و الطرحة السوداء،والجالسة مباشرةّ أمام هدير.

جاءت صرختها بعدما ارتطمت رأسها بسقف السيارة نتيجة المطبات المتكررة التي لا يبالي بها السائق الذي زاد من سرعة سيارته مستغلاً السيولة المرورية التي حلّت على الطريق الآن والتي لا تتكرر إلا في المناسبات.

كانت راوية تحمل ابنها(سيد)ذو الأعوام السبعة على حجرها لتوفر أجرة مقعد. فقد كانت تجئ به من قريتها إلى القاهرة كلما يعجزها ضيق العيش لتزور أعمامه وجدته لأبيه ليجود كل منهم بالقليل الذي تعتبره (نوايا) تسند الزير بعدما رحل زوجها غرقاً في البحر مع عشرات آخرين كانوا يبحثون عن نافذة في الشمال .

صاح سيد : يا سواق يعني انت أعمى وأصنج كمان .

راوية : خلاص يا سيد .. خلاص .

ثم داعبته : إعظنك بعد المطبات دي مش محتاج ملاهي .

سيد : لا ياختي ماتاكليش حقي .

أشارت راوية إلى رجال اصطفوا في بِدَل مدنية على جانبي الطريق ويحمل كل منهم جهاز لاسلكي .

ثم سألت ابنها في حيرة : إيه كل البدل دي .. هو فيه فرح النهارده ؟

-فرح إيه يامّا .. ده ماتش القمة .

-قمة ؟

-الأهلي والزمالك .. ده أيمن حفني هَيدَشمِلهم النهارده .

توقفت العربة فجأة .. توقفت الحركة تماماً وفي هذه المرة كانت الأسباب معلومة ومكررة .

أخرج كلٌ رأسه من شباكه. وعلى امتداد البصر زادت أعداد البِدَل على جانبي طريقهم المغلق، وعلى جانبي الطريق الموازي ..المفتوح .

وتوجس الركاب متسائلين .. هل تفوتنا المباراة ؟

***

فبراير ٢٠١٧

ذلك الإمام

نبهنا الإمام أن»تراصوا واعتدلوا .. القدم في القدم،والكتف في الكتف يستوي الصف .. ولا تتركوا فرجة بينكم للشيطان «. كبر تكبيرة الإحرام، وبعدما انتهى من الفاتحة وأتبعها ببضع آيات من آل عمران ، كبر ثم انحنى للركوع . فوجئت به بعد اعتداله من ركوعه يتحرك للخلف ويقدم الرجل الذي كان يقف وراءه للإمامة بدلاً منه !. تعجبت من الموقف الذي كنت أراه للمرة الأولى. وبدأت أفهم عندما سمعت الباب الخشبي لدورة المياه القريبة يفتح ويصنع ذلك الصوت الذي أعرفه جيداً. فهمت أكثر بعدما انتهينا من الصلاة عندما رأيت الإمام الذي كان قد خرج من صلاته ثم جدد وضوءه وعاد كمصلي يجلس بجوارنا ويعتذر بنبرة مهذبة. وتبين أنه أحدث أثناء ركوعه ما يفسد الوضوء والصلاة.

حمدت الله على نعمة الإسلام .وخرجت من المسجد وأنا أغبط ذلك الإمام على شجاعته وإخلاصه.فحدثه لم يكن له أثر نلحظه.

***

يونيو ٢٠١٧

كل الطرق

اتفقنا .. دون أن نجتمع للاتفاق .

ثم سلك كل منا طريقه،في انتظار اللحظة الحاسمة .

فكل الطرق .. باتت تؤدي إليها .

***

يونيو ٢٠١٧

٢٠ شارع عواد خليفة

انتبهت إليها من وقع قدميها تطرق بكعب حذائها العالي بلاط الغرفة التي خلت إلا منا ، وتقترب في وجل وحياء .

عندما دنت مني ، تعجبت من ارتدائها لسروال رجالي شتوي يغطي ساقيها وفانلة رجالي أيضاً ذات أكمام طويلة ، بينما تضع فوق رأسها باروكة صفراء فاقعة اللون ، وتصبغ شفتيها بطلاء لم أستطع تمييز إن كان بنفسجياً أم وردياً .

اتخذت خطوة إلى الأمام لا لتمييز لون شفتيها ، ولكن لسبب آخر.

إنني أعرف هذا الوجه جيداً ! .

«ياما نفسي أعيش إنسان قلبه على كفه ..

كل اللي بردانين في كفوفه يتدفوا .. «.

كانت هذه هي الكلمات التي يوقظني بها صوت (حمزة نمرة) المنبعث من هاتفي صباح كل يوم ، ومنذ بضع سنوات لم أغير هذه النغمة التي تحمل رائحة الأيام الجميلة .

استيقظت وأنا نصف مستثار ونصف مقروف . نعم ، فقد كان الوجه الذي حيرني لون شفتيه في الحلم لزميل في العمل لا يكف عن نفاق مديره وتملقه .

نزلت من فراشي بعدما تحسست بقدمي مكان الشبشب . وقفت وتمطيت ، وحاولت استعادة صورة الحلم الغريب. ضحكت ، ثم توقفت عن الضحك عندما سمعت جرس الهاتف المنزلي .

من يتصل بنا في السابعة صباحاً ؟!

جريت بشكل لا إرادي حتى أرد قبل أن يستيقظ أهل البيت مفزوعين . كانت خالتي الصغرى تتحدث بصوت متهدج .تكاد تبكي .

قالت : إديني أمك ..

-مالِك ؟ في حاجة ؟!

-آه في ، بس إديهاني الأول ..

اضطررت لإيقاظ أمي التي قامت من نومها مضطربة لترد على المكالمة التي زادتها اضطراباً .

سألتها أمي :

-في إيه ؟!

-شقة أختك ولّعت .. إلبسي وانزليلي دلوقتي .

لم تكن تقصد شقتها هي التي احترقت . بل شقة أختهما الكبرى التي كانت لستر ربنا تبيت وقت حدوث الحريق بشقة جدتي لأمي في نفس عمارتنا .

حاولت تهدئة أمي التي بدأت تبكي مفزوعة . ثم قامت بالاتصال بخالي الأكبر المقيم معنا بنفس العمارة لتخبره بما حدث كي ينزلا سوياً لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ومعالجة آثار الحريق . أكّدَت عليه ألا يخبر خالتي الكبرى التي احترقت شقتها في غيابها ؛ حتى لا يصدمها الخبر وأن يؤجل ذلك لحين إصلاح الأمر قدر المستطاع .

على الفور اتصلت بمديري في العمل واعتذرت له عن الحضور اليوم . وأخبرت أمي أنني سأنزل معها هي وخالي .

قالت أمي : عشر دقايق وتكون جاهز . مش هينفع نوقف خالك .

قلت : أكيد طبعاً .

قلتها وأنا لا أعرف أياً من طقوسي الصباحية سأضطر لإلغائها كي أنجز فقط في

عشر دقائق ؟

قررت ألا أقوم بتمريناتي الرياضية ، مما سيساعدني أيضاً على توفير وقت الاستحمام .كما فكرت في التنازل عن فنجان القهوة واستبدال كوب شاي (كشري) بها ، والاكتفاء بعمل شطيرة واحدة من الجبنة وقد أغسل معها خيارة واحدة أيضاً ..

نادتني أمي : واقف ليه يابني ؟!

-أنا رايح أهو ..

بالطبع دخلت الحمام ، وغسلت وجهي محاولاً إزالة ما أستطيع من الخمول بفعل الحلم الغريب الذي تركني معلقاً ، وبفعل عدم قيامي بالتمرينات .توضأت ، وزيادة في النظافة اعتدت عليها قمت بغسل يديّ بعد الوضوء . وللحظ اللطيف انزلقت الصابونة الكبيرة من يدي وغاصت في المرحاض حتي استقرت في قاعه!.

نظرت مندهشاً لا أعرف كيف أتصرف في مثل هذا الموقف . تذكرت نصائح جارنا الشاب-المتزوج منذ بضعة أشهر-لعروسته بعد غلاء الأسعار :

-مش لازم كل شوية تفتحي صابونة جديدة عشان تبريها وانتي بتستحمي . حطي بروة على بروة تبقى صابونة كويسة .. دي الصابونة الجديدة بقت بستة جنيه يا هانم .

سمعت صوت أمي من الخارج تسأل في غضب : خلصت يا ابني ؟!

قلت : خلصت خلاص ..

بخفة حركة متحاشياً النظر إلى فعلتي ، انتزعت الصابونة ثم غسلتها . نعم غسلت الصابونة .

كانت أمي قد سبقتني إلى سيارة خالي عندما نزلت جرياً لأجدهما يحاولان جاهدين إقناع خالتي الصغرى-المنهارة باكية على الهاتف بعدما سبقتنا إلى

شقة أختها – بألا تصر على إخبار صاحبة الشقة حتى لا يصدمها خبر الحريق .

ناولني خالي الهاتف ، وقال : خد اقنعها كده .

قالت لي : الشقة اتحرقت يا محمود .

-ما أنا عارف يا خالتي أمال إحنا جايين ليه .

-الشقة اتحرقت يا حبيبي .

-صلي ع النبي طيب .

ثم أعدت الهاتف إلى خالي قائلاً له : حاول تقنعها كده ..

في الطريق لم نتبادل الكثير من الكلمات .كان الخبر صادم بلا شك. فقد شهدت شقة خالتي-هذه-أيام ومشاهد لن تعوض.ففيها هيأت صاحبة البيت ذات مرة مكتباً صغيراً وضعت فوقه فنجان القهوة لابن أختها كي يكتب قصته الأولى وهو لم يتجاوز العشر سنوات.وفيها وجد ذلك الولد ملاذاً في شبابه كي يبيت بمنأى عن غضب أبويه بعد عودته من المظاهرات. حاولت تخيل صورة الشقة الآن بعد الحريق. ثم كففت عن المحاولة . جزعت حتى من مجرد التفكير في تشوه آخر ما تبقى لي من أماكن الماضي . فشقتنا القديمة- الواقعة في نفس منطقة بيت خالتي الكبرى بشبرا-كنا قد بعناها منذ ثماني سنوات . بل كنا قد بعنا البيت كله الذي كان يضم شقة جدتي لأبي التي لاتنسى.أما شقة جدتي لأمي والتي قضيت بها جزء لا بأس به من طفولتي أيضاً فقد هجرتها جدتي المسنة وسكنت بشقة في نفس العمارة الجديدة التي انتقلنا إليها-في مدينة السادس من أكتوبر-لتكون بصحبة عدد من أبنائها . وصارت شقتها القديمة بشبرا التي احتضنت طفولة الأحفاد خاوية من الأثاث،وما تبقى بها من قصصنا الأولى غمره التراب،وحاصرته خيوط العناكب .

قال خالي لكي يكسر الصمت : بيقولوا في تعديل وزاري النهارده ..

قلت لنفسي : ليته ترك الصمت في حاله . هاهو يا أمي يجرني إلى مناقشات سياسية عزفت عنها منذ زمن . منذ قال لي أن جيلي لا يعرف الانتماء ، فتجرأت حينها - للمرة الأولى والأخيرة - عليه وقلت له أن جيله يعيش في (مية البطيخ) تجاهلت ملاحظته على موضوع التعديل الوزاري . واعتمدت في تجاهلي على أنه لم يوجه الكلام إليّ بالتحديد . كما أنني قد أكون سارحاً وأنا أنظر إلى الطريق من شباك الكنبة الخلفية . وبينما كنت أهرب بالنظر فعلاً إلى الطريق وجدت عدداً من اللافتات الإعلانية التي تتشابه خلفياتها مكتوباً عليها « بالإصلاح الجرئ ننطلق على الطريق»،و» نحافظ على كرامتنا حتى لو هنضحي بلقمتنا « ، وأخيراً « يا مصر قومي..وشدي».حثتني العبارة الأخيرة على تخيل صديقي مروان وهو يجلس في المقهى بجوار مصر-وهي (مفرهدة)-ويلسعها بكفه فوق إحدى ساقيها ويقول بصوته الرخيم : « أحلى مسا على فخادك يا مصر ..» .

ضحكت بصوت.نظر خالي إليّ من خلال المرآة،وقال لي : افتكرتك نمت .

-لا أنا صاحي .

-رُحت معرض الكتاب السنة دي ؟

هاهو خالي الذي أحبه . دار حوار قصير حول الكتب بيني وبين الرجل الذي كان أول من أعارني كتباً وشجعني على القراءة .

وصلنا أخيراً إلى منطقة الحدث . وبعد حيرة ومحاولات مضنية تمكن خالي في النهاية من إيجاد مكان مناسب بالكاد يكفي لكي يركن سيارته بالشارع الضيق

عند مدخل البيت مررنا على امرأتين لا نعرفهما جالستين على عتبة إحدى البيوت المجاورة . قالت إحداهما: ربنا يعوض عليكم ..

وقالت الأخرى معزية : بركة إن جات على أد كده .

صعدنا على الدرج في صمت حزين كمن أتوا لحضور جنازة .

عند مدخل الشقة المعتم استقبلتنا خالتي الصغرى بعينين شاردتين ، ومن خلفها ثلاث جارات في جلاليب منزلية . دون إعداد مسبق تبادلن الميكروفون بشكل انسيابي شيّق وقصصن علينا ماحدث .

أخبرتنا إحداهن أنها كانت أول من اكتشف الحريق عندما شمت رائحة الدخان وهي تمر أمام شقة خالتي بينما كانت ذاهبة مع ابنها إلى مدرسته . ونظراً لحضور العشم بقوة بين خالتي وجيرانها الودودين فقد كانت تترك نسخة من مفتاح شقتها مع جارتها هذه . فتذكرته الجارة حينها وفتحت باب الشقة لتصدمها رائحة الحريق وسحابة دخان تعمي العيون وتطمس كل شبر من البيت وتحيله إلى بقعة سوداء .

أكملت الجارة الثانية بأنها سمعت صراخ الأولى واستغاثاتها فأيقظت زوجها – عامل البناء - الذي اضطر لتسلق مواسير المنور ليصل إلى مركز الحريق بالصالة ويتمكن من إطفائه . ذلك الجار المصاب بضيق تنفس والذي لم يبالِ إلا بإنقاذ الشقة من الهلاك .

ختمت الجارة الثالثة بأنها اتصلت بابن أختها (صاصا) الذي يفهم جيداً في الأعطال الكهربية والذي جاء وقام بفصل الكهرباء عن الشقة . كما قامت أيضاً بالاتصال بخالتي الصغرى وإخبارها بأمر الحريق بدلاً من أن تتصل بصاحبة الشقة وتصدمها بالخبر .

بعد الفحص السريع تبين أن الخسائر تعتبر محدودة والحمد لله . فلولا الجار الشهم الذي استطاع إطفاء الحريق لامتد حتى أكلت النار ما في طريقها محدثة ما هو أفجع . أصاب الحريق غسالة (نصف أوتوماتيك) في الصالة الداخلية . أصابها حتى أزالها تماماً. واكتشفنا أن الدخان الأسود الذي غطى الأثاث والأسقف والجدران ناتج عن احتراق الجسم البلاستيكي للغسالة . كما احترق أيضاً جزء من سجادة وستارة في نفس الصالة .

طلب خالي مفك اختبار . فجاءوا له باثنين . أعطاني أحدهما وأمسك الآخر

بيمناه واقترب من المخرج الكهربائي المجاور للغسالة - الراحلة - واضعاً يده اليسرى في جيب سترته . وبمجرد ملامسة نهاية المفك للمخرج الكهربائي خرجت شرارة كهربية كثيفة مفاجئة .

بسرعة فائقة انقضت خالتي الصغرى على خالي وخطفت المفك من يده ، قائلة : ماحدش هيلعب في الكهربا..

فأعطيتها بدوري المفك الآخر عندما نظرت إليّ ، وقلت لها : أنا مش عايزه أصلاً .

قال خالي موجهاً كلامه لإحدى الجارات :

هو مش حضرتك يا هانم قلتي إن صاصا فصل الكهربا عن الشقة ؟

قالت : صاصا برضك مش خبير .

-هو صاصا معاه إيه ؟

-على باب الله ..

قلت : إحنا محتاجين كهربائي يا جماعة .

ذكرتني أمي بعم (شحات) الكهربائي الذي كنا نتعامل معه قبل أن نغادر بيتنا القديم ونرحل عن المنطقة . توجهت إلى بيت عم شحات الذي يفصل بيتان بينه وبين مسكني القديم . تحت بيته وجدت عجوزاً بيضاء تجلس خلف قفص خشبي مقلوب تعلوه حزم خضراء من شبت وبقدونس . تبلل أطراف أصابع يمناها بماء الكوز المعدني المستقر بجوارها على أرض الشارع ، وتنثر الماء فوق الخضرة لتظل موحية بنضارتها .

سألت العجوز الجميلة - ذات الجلباب الكحلي المزركش بورود صفراء منمنمة – عن بيت (عم شحات) لأتيقن منها . فقالت :

-هو البيت اللي قدامك ده يا عسل .

-هو الباب شكله مالوش جرس .

-لأ مالوش .. انده بس انت قول يا أنور .

-بس أنا عايز عم شحات !

-ماهو انده قول يا أنور عشان يردوا عليك .

استجمعت قواي وتوكلت على الله : « يا أنواار « .

لم أفعلها منذ رحلت عن المنطقة منذ ثماني سنوات حين كنت أذهب لبيت صديقي حازم وأناديه لنلعب كرة القدم مع باقي الأصحاب .

-يا أنواااار .. يا أنوااار ..

قالت البائعة : انده أوي يا حبيبي .. أصل نومهم تقيل .

-يا أنوااار .. يا أنوااار .

بدأت ألحنها وأقسمها كما كنت أقسم نغمة ندائي قديماً على حازم .

أخيراً فُتح الشباك . طلت منه عجوز أخرى تربط رأسها بمنديل أخضر.

قالت : عايز مين يا ابني .

-عايز أنور .. قصدي عايز عم شحات

-عايزه ليه يا عينيّا

-شغلانة كده يا حاجة ، وعايزين لها كهربائي مخضرم .

-بس عمك شحات مابقاش يقدر ينزل شغل من زمان .

وألقت السلام ، وأغلقت الشباك .

قالت البائعة العجوز : هو انت عاوزه في شغل ؟

-أُمال هعوزه في إيه ؟!

-عمك شحات اعتزل من زمان .

عُدت إلى بيت خالتي فوجدت النساء منهمكات في جمع المفارش والملاءات والملابس وكل ما سيحتاج إلى الغسيل . وصفت لي إحدى الجارات دكان يبيع أكياس كبيرة للستائر سيحتجن إليها في مهمتهن .

نزلت مرة أخرى من الشقة التي تقع في الدور الرابع ، وسرت في حواري وأزقة أحفظها عن ظهر قلب وأفتقدها بكل ما في القلب . مررت أمام حلاقي القديم (عم بكر) ، وعطفت يميناً متحاشياً المرور أمام بيتنا القديم حتى لا تقع عيناي على أطفالاً آخرين يلهون حيث كنت ألعب وألهو مع إخوتي ، متحاشياً النظر إلى شباك كان منفذنا إلى الشمس والنور والحياة ، حتى لا أجد سيدة أخرى تقف حيث وقفت أمي شاردة تفكر في مستقبلنا .

رأيت في طريقي دكان (عبد الباسط) بائع الطعمية التي تأسست عليها ، ولمحت صيدلية (دكتور بشاي) الذي كثيراً ما أسعفنا وقت الأزمات . وصلت أخيراً إلى الدكان الذي وصفوا لي إياه .

داخل الدكان تجلس بعينين حزينتين . يظهر وجهها شديد البياض من حجابها الأسود ، وتغطي جسدها البض بعباءة سوداء لا تقوى على إخفاء استداراته .

مفتون أنا منذ الصباح . مرهق بلا أمل في راحة . ظمآن ولا أجد السبيل .

قالت لي : أؤمر ..

-الأمر لله .. في أكياس ستاير ؟

-في كل حاجة .

شعرت أنني ألتحم مع المكان . وأعود بالزمن إلى أيام مراهقتي . وحثتني نظراتي والألوان المبهرجة للدكان الذي أستند على فاترينته متطلعاً إلى صاحبته ذات الجمال الشعبي برغبة في مداعبتها . وكدت أقول لها ضاحكاً : يا صفايح الزبدة السايحة .

-عايز كام كيلو

-كام كيلو إيه ؟!

-أكياس

-خمستاشر

-خمستاشر كيلو ؟!

-لا .. خمستاشر كيس

-يبقى كيلو ونص

-اللي تشوفيه

انحنت خلف دولاب قصير داخل المحل . ووجدتني دون وعي أقف عند مدخل الدكان متجاوزاً الفاترينة . انتبهت وخرجت مرة أخرى حتى لا يظن بي المارة الظنون .

حاسبتها ، وتبقى لها جنيهان ونصف من الحساب .

قلت لها : بس مش معايا فكة .

-ولا يهمك .. في أي وقت وانت معدي .

-أصل أنا مش قاعد هنا يعني ..

قلت الجملة الأخيرة بمنتهى السماجة راغباً في استمرارالحوار الذي لم يستمر بعدها .

في طريق عودتي جاءتني أفكار فلسفية غريبة . قلت لنفسي أن مثل هذه المرأة كافياً لإشباعي بمراحل تفوق قدرات خطيبتي – الأرستقراطية – السابقة التي لم يكن يعجبها العجب . تساءلت لماذا نبحث عن الأصعب ويؤلمنا فقده ، في حين أن الأسهل أشهى وأوفر .

رن هاتفي برقم أحد عملاء الشركة التي أعمل بها . حدثته بلباقة اعتدت عليها . واستمعت إلى شكواه ونسقت معه موعد لحل مشكلته فاطمأن قلبه وشكرني على تعاوني وسعة أفقي .

فى تلك اللحظة أرهقني التناقض الذي أحدثه ذلك اليوم الغريب . حضر في ذهني صوت الممثل (هيو جاكمان) يتسائل في فيلم البؤساء (who am i?) من أكون ؟

عدت إلى الشقة بالأكياس . أخبروني أن المحاولة التي أجروها من خلال الاتصال بعمتي لتساعدهم في جلب كهربائي بحكم معرفتها بأهل المنطقة قد فشلت هي الأخرى .

تذكرت إحدى الجارات شيئاً ، ثم قالت لي :

-يبقى مافيش غير عادل

-عادل مين ؟

-كهربائي في البيت اللي جنبنا . سألنا أمه عليه الصبح وقالت هيرجع البيت ع الضُهر ، جرب تروح تناديه .

مرة أخرى أذهب تحت أحد البيوت وأنادي :

-يا عادل .. يا عاااديييل .

خرجت من البيت المجاور امرأة ثلاثينية مع طفلة صغيرة تحمل حقيبة مدرسية .

سألت السيدة :

-بعد إذنك .. هو ده بيت عادل الكهربائي ؟

-لأ .. البيت اللي انت واقف عنده.

-هو مافيش جرس أو إنتركوم ؟

-انده أوي .

وسارت مع الطفلة بعيداً .

سئمت من تكرار النداء دون نتيجة . فصعدت مرة أخرى الأدوار الأربعة حتى شقة خالتي ، وعندما أخبرتهم أن أحداً لم يرد ، قالت الجارة صاحبة الاقتراح وبمنتهى اليقين :

-كده تبقى أم عادل نزلت السوق ، وعادل لسه مارجعش .

وبينما كنا نتحدث وجدنا أبي في الطرقة القصيرة الفاصلة بين شقة خالتي والشقة المقابلة لها . يتجاوز بقدميه أشلاء الغسالة المحترقة والسجادة المتآكلة التي أخرجناها أمام الشقة استعداداً لإخلائها للإصلاح والتنظيف. وبصحبة أبي رجل غريب فهمنا على الفور أنه الكهربائي المنتظر .

في تلك اللحظة أحببت أبي كما لم أحبه من قبل .

أخذ الكهربائي يفحص مكان دخول الكهرباء إلى الشقة ، وكذلك مكان حدوث العطل الكهربائي الذي أدى إلى الحريق . ويعيد علينا أسئلته الدقيقة التي

يطرحها بطريقة تليق أكثر بوكيل نيابة .

يسألنا عن عمر كل من السخان الكهربائي والغسالة ، وهل اعتادت صاحبة الشقة ترك فيشة الغسالة في المخرج الكهربائي أثناء عدم تواجدها بالشقة ؟ وما سبب عدم تواجدها بالشقة وقت الحادث ؟!

ثم أشاح بيده وقال بثقة عالم فيزياء نووية :

-دي أسئلة تهمني أنا في مجالي .. انتو عمركو ما هتفهموها .

أردت أن أخبره أنني وخالي لدى كل منا بكالوريوس في الهندسة الكهربية . لكنني تراجعت عن فعل ذلك لأنه في مثل هذا الظرف لابد أن نصبر ونعامله كخبير نحاول أن ننهل من أم علمه حتى تنتهي (الشغلانة).

أخيراً قام بفصل الكهرباء عن الشقة . ثم أخبرنا بحاجته لبعض المفاتيح والأسلاك الكهربية وكذلك بعض الأسمنت والجبس . دونت كل ما يريده وأعدت عليه السؤال مرتين إذا كان سيحتاج لأي شئ آخر .

نزلت مع خالي لإحضار ما طلبه الكهربائي . صلينا الظهر في المسجد الذي كثيراً ما صليت به قديماً صلاة التراويح خلف الشيخ (عبده روسيا) . ثم توجهنا لمحل الأدوات الكهربائية الذي وصفه لنا الكهربائي ، واشترينا أشياء تجاوزت فاتورتها ألفي جنيه .

سرنا بعدها في الطريق المؤدي إلى دكان الموّان لكي نشتري الأسمنت والجبس . وفي طريقنا إليه مررنا على مكتبة (بهلول) التي اعتدت في أيام طفولتي أن أشتري منها الكتب الخارجية وكذلك الأقلام والممحاوات والبرايات التي تحمل أحدث الصيحات بين تلاميذ المدارس .

عندما وصلنا إلى دكان الموّان ، وجدته رجلاً عجوزاً بوجه تملأه التجاعيد . يتحدث في رجاء إلى رجل آخر -عابس الوجه- يقف خارج الدكان .

طلب خالي من البائع الكمية غير القليلة التي نحتاج إليها من الجبس والأسمنت فانفرجت أساريره . سار بخطوات عرجاء نحو المخزن الداخلي للدكان ثم أشار إليّ منادياً :

-تعالى يا واد

-أنا ؟!

-تعالى يا واد ماتخافش

نظرت إلى خالي الذي رد عليّ بنظرة مواسية كي أستجيب لصاحب الدكان . دخلت فوجدته قد وضع الكمية التي طلبناها على حامل معدني ذو يدين مقوستين وعجلتين يتحرك عليهما لتسهيل نقل البضائع من خلاله .

اقترب مني البائع ثم قال :

-تحط باقي الشنط اللي معاك انت والبيه فوق العجلة عشان مش هتقدروا تشيلوا. توصل البضاعة وتنّك راجع بالعجلة .. فاهم ياض ؟

-فاهم يا معلم .

سرت وأنا أسحب الحامل المعدني خلفي ، بالضبط كما كان يجر (فريد شوقي) عربة الخضار بدلاً من الحمار في فيلم (الفتوة). أنظر لمن حولي وأنا أمشي معتزاً بنفسي . أفكر في الذنب الذي اقترفته وأكفر عنه الآن ، فأتذكر بائعة الأكياس .

يحمل خالي –الذي يرتدي بدلة كاملة- كيس لم نتمكن من وضعه فوق الحامل . ويشارك معي من الخلف بدفعة من يده للحامل . يخطر ببالي أن هذه هي العلاقة التي أتممناها بين جيلينا . نحمل نحن العبء بعزم الشباب بينما يساهمون بخبرتهم فقط في دفعنا للأمام .

ضحكت عندما انتبهت إلى أن هذه الحكمة التي حلت عليّ لا تناسب أبداً موقفي هذا وأنا أجر الحامل ، وقلت له ضاحكاً : زُق يا خال .

في بيت خالتي كانت إحدى الجارات قد أتت بقطع من الكيك وأكواب الشاي الساخن . وكان الكهربائي مع مساعديه يقومون بالعمل على قدم وساق . بينما النساء يكملن ما بدأنه من جمع الملابس والمفارش في أكياس . وكذلك مساعدتنا في وضع أثاث المنزل في غرفة قريبة من باب الشقة لنتمكن أنا وأبي وخالي من حمله ونقله إلى شقة بالدور السفلي تمكن صاحب البيت من الاتفاق مع صاحبها -الذي كان يستأجرها كمخزن لبضائعه – ليتركها لنا لحين الانتهاء من إصلاحات شقة خالتي ، والذي لم يتردد في الموافقة رغم أنه لايعرفنا ولا نعرفه .

فوجئنا بخالي الأصغر يقف بيننا في الشقة . سلّم على الحاضرين . وراقبت استقبال خالتي الصغرى له ولاحظت إضحاكه لها من آن لآخر وهو يساعدها في نقل الأثاث . وتعجبت من ترتيبات القدر الذي جمعهما بعد طول قطيعة نتيجة رفضه خطبة ابنته لابنها الذي هاجر منذ عامين .

طلب الكهربائي أشياء أخرى اضطررت للنزول لشرائها وصاحبني في الطريق (زيزو) جار خالتي ذو التسعة أعوام والذي يقضي لها أحياناً بعض المشاوير اشترينا ما نريد وعندما وجدت الحمل خفيفاً أعطيت المشتريات لزيزو وأكدت عليه أن يذهب إلى البيت لحين قضائي مشوار آخر حتى لا نتأخر على الكهربائي سرت لمسافة طويلة أبحث عن مطعم مناسب لشراء غدائنا. مررت من أمام محلات الملابس التي كنا نجد فيها ما يسرنا في الصغر قبل كل عيد . ومن بعدها وجدت النادي المتواضع الذي كان ملاذنا في أيام الأجازة الصيفية . وتذكرت (كابتن سمير) مدرب كرة القدم لفريق الأشبال الذي علمني أنا وزملائي في أول أيام التدريب أن « لاعيب الكورة لزماً يبقى لَبَط « . وتذكرت اليوم الذي ذهبت فيه للتدريب أنا وابن عمتي بعد أكلة (محشي وبط) كانت سبباً في هزيمة ساحقة لأشبال النادي . تذكرت أيضاً (كابتن لطفي) مدرب السباحة ضخم الجثة الذي كانت قفزته في حمام السباحة قبل بدء التدريب كفيلة بإفراغ الحمام من نصف مائه وغمرنا بها من قبل أن ننزل .

أخيراً وبعدما سرت لمدة تزيد عن عشرين دقيقة استقريت على مطعم لشراء وجبات الغداء . طلبت لكل منا وجبة دجاج مشوي . وبينما كنت أقف خارج المطعم رأيت عاملين من عمال المطعم يقفان بجوار الفرن الذي تسوّى به أرغفة (الحوواشي). وكان كلاهما يقذف الآخر بعجينة الحوواشي بعدما يكورها بيده. تأكدت أنني لست الوحيد الذي لم ينم جيداً في هذا اليوم. شعرت بشئ من القرف وقررت الجلوس داخل المطعم في انتظار الوجبات .

وبينما كنت سارحاً مع الطباخ وهو يضع صدور الدجاج فوق الشواية ، سمعتها من خلفي تناديه :

-يلا يا عم والنبي احنا جُعنا ع الريحة .

صوت رقيق تسرب تحت جلدي وتخللني ، وقادني للالتفات خلفي .

مرة أخرى ألتحم مع المكان وأعود لزماني الأول .

قصيرة القامة كطفلة بعينين خضراوين ووجه أبيض بحمرة تكلله خصلة من شعرها -المصبوغ بالأصفر – ظهرت من تحت طرحتها السوداء .

قبضت على الجمر وهممت أن أعطيها ظهري كما كنت . لكنها نادتني أنا في هذه المرة :

-لو سمحت يا أستاذ .

-نعم .

ثم قامت بإخفاض صوتها ، ولا أعرف لماذا أسعدني ذلك . قالت :

-كنت عايزة أسألك على حاجة يعني ..

-خير

-هو مافيش هنا محلات صرافة قريبة ؟

-ليه ؟ عايزة تشتري دولارات ؟

-لأ عايزة أبيع . ده نزل من تمنتاشر ونص لستاشر ، والحكومة بتقول هينزل أكتر من كده. أنا بيني وبينك معايا ألفين دولار أخويا محوشهم معايا وقال لي الحقي بيعيهم .

-بس خلي بالك الدولار نزل بس هيعلا تاني .

-إزاي الكلام ده ؟!

-هو نزل عشان في دولارات دخلت البلد في الدفعة بتاعت قرض صندوق النقد . غير إننا في بداية السنة وفي تجار ما بيستوردوش خلال الفترة دي . وفي أجازات كمان عند بعض الموردين في الصين . ده غير بقى إن الحكومة طرحت الفترة دي سندات مالية و .... هو حضرتك معايا ؟!

كانت صامتة لا ترمش ، حتى قالت مرة أخرى :

-هو مافيش هنا محلات صرافة قريبة ؟

وصفت لها محل صرافة قريب . نبهتها إلى أنها قد تجده مغلق إن لم يكن أيضاً قد تم القبض على أصحابه .

وبينما كنت أتسلم الوجبات سمعت صوتها الرقيق تتغير نبرته وهي تنهر طفلاً – لم أنتبه من قبل لجلوسه بجوارها- وتصرخ في وجهه :

-كده دلَأت الميه على حجرك . يخرب بيتك ده فانلتك رنّخت خالص .. يلا بقى يا عم والنبي جُعنا لما وَحوَحنا.

في طريق عودتي بالوجبات ركبت مع سائق (توكتوك) من النوع الذي يحب أن يغمرك صوت مطربه المفضل . كان صوت (حسن الأسمر) يعلو بنفس سؤال

(هيو جاكمان) الذي تذكرته ظهيرة هذا اليوم الغريب (who am i?) ولكن على طريقته الخاصة الحزينة :

-أنا مين؟ .. أنا مين؟ .. أنا مين؟ .. أااانا ميييين ؟

على الرصيف رأيت عدداً من الباعة يفترشون الأرض بقلوب حمراء وألعاب على شكل دببة وأرانب .

سألت السائق مشيراً إليهم :

-إيه الحكاية يا اسطى ؟

-انت مش عارف يا باشا ولّا إيه .. النهارده الفلانتاير .

-ال .. إيه ؟!

-الفلانتاير ..عيد الحب يا باشا كل سنة وانت طيب .

-وانت بالصحة والسلامة يا اسطى .

تناسبت تهنئته العزيزة مع مروري على المنطقة التي تضم مدرستي القديمة . رأيت في البداية الشارع الخلفي الذي تسكن به حبيبتي الأولى ذات العينين العسليتين . والتي فرقتني عنها خلافات سياسية اضطرتنا للانفصال في الصف الرابع الابتدائي بعد تنافسنا في انتخابات أمانة الفصل . ثم مررنا بعد ذلك على الشارع الذي كانت تسكن فيه حبيبتي الثانية صاحبة الشامة البنية .

وتذكرت أيضاً من استحقت حبي ولم تسكن بشوارعي الخلفية .

ذات الضفيرة البنية التي أحبتني بلا وعد مني ، وعاهدتني وأوفت دون عهد مني ولا وفاء . فهجرتني بكبرياء . وزارتني مرةً تلو الأخرى في أحلام وردية . ترمقني بنظرات حديدية . وكأنها تؤنبني على رحيلي عنها دون وداع . فتتركني بعد شوقي في ضياع . أهُمّ بأن ألمسها فتتبخر قبل أن ينتهي الحلم . وأظل أنا

أحلم وحدي .

أين ذهب اللون البني ؟ كيف خلت حياتي منه ؟!

كيف يا اسطى ؟

عند سؤالي له تنبهت أنه قد أوقف (التوكتوك) ونزل منه ليتشاجر مع سائق سيارة نصف نقل يبدو أنه قد حدث احتكاك بين سيارتيهما أثناء استعادتي لشريط الذكريات البنية .

اشتعلت المشاجرة وهمّ كل منهما بالفتك بالآخر . أخرج سائق النصف نقل (سنجة) من داخل سيارته . بينما عاد سائق (التوكتوك) إلى (توكتوكه) وجاء بعصا معدنية من أسفل المقعد الذي مازلت أجلس فوقه ذاهلاً وبجواري الوجبات .

عرّى كل منهما نصفه العلوي – ولا أعرف سبباً لذلك – وبدأت المعركة . حاول الكثيرون إثنائهما عنها وتهدئتهما ولكن باءت المحاولات بالفشل . جربت أنا الآخر بكلمات مثل : « صلوا ع النبي « أو « استعيذوا بالله من الشيطان « . لكن يبدو أن مثل هذه الكلمات لا يجدي مع من يسب الدين في أول الغضب مرت عشر دقائق وأنا أتنقل بين المعركة لتهدئتهما وبين التوكتوك للاطمئنان على الوجبات التي تركتها به . أرفض ان أخون السائق إذا ركبت توكتوك آخر . وأخشى في الوقت نفسه أن أندس داخل المشاجرة لفصلهما فيحدث ما لا يحمد عقباه .

أخيراً عاد سائق التوكتوك وفي وجهه بعض الإصابات . قال لي :

-هوصلك وأرجع أكمل

-ربنا يوفقك يا معلم

في بداية الغداء رن الهاتف المنزلي لشقة خالتي . ردت أمي لتتفاجأ بأن صاحبة

الشقة هي التي تتصل ! . كانت قد عرفت لتوها بما حدث عندما اتصلت بها جارة أخرى سمعت بوقوع الحريق وظنت أنها كانت بالشقة حينها . عرفت خالتي من أمي باقي التفاصيل وتخلل ذلك بعض من الدموع . وأعادت السؤال على أمي مرات عديدة حول حجم الخسائر وعن صورة الشقة بعد الحريق .

أثناء تناولنا للطعام الذي لا نجتمع عليه كعائلة إلا في الأعياد ، لمحت من شرفة الشقة سطح منزلي القديم الذي رحلنا عنه . استحضرت صورة خروف العيد الذي كنا نربيه فوق ذلك السطح . وتذكرت المرة التي هرب فيها الخروف وكاد يسقط من فوق السور لولا أبي الذي لحقه في اللحظة الأخيرة قبل أن يقفز .

فوق ذلك السطح لعبت مع باقي أطفال العائلة ألعابنا المفضلة ، كرة القدم و (الأولى) و (كهربا) و (ثبت صنم) . لكننا فشلنا في الاستمتاع بطائراتنا الورقية نظراً لوجود صاج معدني يغطي السطح بأكمله . أخبرونا في الصغر أنه لابد منه لحماية البيت من الشمس والمطر .

قبل أن ننتهي من غدائنا اتصلت خالتي الكبرى مرة أخرى ولكن هذه المرة على هاتفي المحمول . قالت لي :

-معلش إني تعبتك النهارده .

-لا يا حبيبتي ولا يهمك . حصل خير الحمد لله .

-هي أمك مخبيّة عليّا حاجة تاني باظت من الحريق . قول لي يا محمود ؟

-لا صدقيني .. مفيش غير اللي قالتهولك .

-اللي هو إيه ؟

-الغسالة والسجادة .

-شُفت أهي ما قالتليش على السجادة !

-معلش تلاقيها نسيت .. فداكي .

-طيب كنت عايزة أسألك .. كان فيه ستارة على الشباك اللي قدام الغسالة ، أخبارها إيه ؟

-المهم إنك الحمد لله ماكنتيش في الشقة .. فداكي .

حل المساء وحل معه التعب على كل أطراف جسدي .

جاء ابن عمتي باثنين شيّالين ذوا بنية قوية ليقوما بنقل بعض الأثاث والأجهزة الثقيلة – التي تم إخلاء شقة خالتي منها – إلى الشقة التي تم تجهيزها لنقلهم إليها بالدور السفلي .

نزلنا جميعاً من الشقة التي صارت خاوية استعداداً لأعمال الترميم التي ستبدأ في اليوم التالي. سرت أنا مع ابن عمتي لنحاسب الرجلين ، وودعته حتى مشى بعيداً .

وجدتني أقف بشارعنا القديم .. (عواد خليفة) .

لماذا سمي بهذا الاسم ؟

وكيف أصبح عواد خليفة يا أهل شارعنا؟!

الأمر لا يخلو من أقاويل وتفسيرات عديدة.لكن كل ما قيل أو يقال لا يغير من الواقع الذي لا يملك أحد أن ينكره.

هذا هو اسم الشارع .

وقد حسمت أمي الأمر معي في الصغر :

-ده أكيد اسم أول واحد سكن في شارعنا .

ها أنا أقف أمام البيت . بيتنا القديم، ذو الرقم ٢٠ . أتطلع إليه كصديق رغم

غيابه ظل حاضراً . سكنت به ولازال يسكنني . هجرناه بحثاً عن مكان أفضل . لكن مخيلتي أبَت أن تعترف بغيره بيتاً .

عرفت هنا الحياة وتعلمت أول شئ من كل شئ .

وعرفت الموت أيضاً لأول مرة .عندما تعبت جدتي لأبي وجاء الطبيب عابس الوجه. قال لنا : ادعوا لها بالرحمة . كدت أضربه . لازالت تتنفس . لماذا تجبرنا على التسليم ؟ لازالت تتنفس . ألست طبيباً لتصنع شيئاً؟ أليس هناك طبيباً غيرك؟

نزلت إلى المسجد . صليت . بكيت في كل ركعة . ودعوت في كل سجدة أن تبقى حية . أعرف أنها مريضة. أعرف أنها ستموت كما سنموت جميعاً . لكن ما لا أعرفه ولا أذكره متى كانت المرة الأخيرة التي مررت عليها وجلست بجوارها لإضحاكها وسماع حكاياتها والاطمئنان على صحتها ؟ لا أعرف متى كانت المرة الأخيرة التي دعت لي ؟ لا أعرف إن كانت راضية عني أم كانت حزينة لأنني في الفترة الأخيرة كنت مقصراً معها .

يارب .. دعوت كما لم أدعُ من قبل . ورجوت الله أن يطيل في عمرها . وخُفت من الحزن الذي سيعم البيت الذي لم أعرفه إلا فرِحاً دائماً .وخفت عليها إذا رحلت وتركناها وحيدة في قبر معتم .

عُدت إلى البيت بعد صلاتي . كانت لا تزال تتنفس . تربعت بجوارها فوق الفراش . وأمسكت بالمصحف وبدأت أتلو بعض آيات الله . وحدي مع الموت في الغرفة . أدعو الله أن يغادر الموت ويتركها لي ولو ساعة. ولكن حان قضاء الله . أغمضت عينيها بكفي الصغير . وعرفت حينها أن كل شئ زائل . وأن أحداً لا يقوى على منع القدر .

رن هاتفي . فتحته بيمناي ، وبأصابع يدي اليسرى كنت أجفف دموعاً جاءتني من الماضي .

سألتني خالتي الكبرى التي كانت تتصل :

-إزيك يا حوده ؟ معلش بزعجك ..

-إزيك يا حبيبتي .. ولا يهمك

-كنت عايزة أسألك على حاجة كده ؟

-أؤمريني ..

-الأمر لله يا حبيبي . الغسالة النص أوتوماتيك كان فيها طبق غسيل أخضر .. طبعاً الطبق راح ؟

-فداكي الطبق .

***

فبراير ٢٠١٧

طرق التواصل مع الكاتب

- mahmoud_moharram@outlook.com
- facebook.com/mahmoud.moharram.33

شكر ومحبة

إلى ناقدي الأول..صديقي محمد عبد المجيد

وإلى ..

-أختي الكبرى وأمي وأبي

-الخال/فؤاد عبد الله

-خالتي الكبرى

-الأصدقاء أحمد ونهال عاطف

-أسرة صالون نجيب الثقافي

-كل زميل أو صديق دعمني وشجعني

-وإلى كل قارئ تحمّل تجربتي الأولى

الفهرس

إهداء ٥

ألف جنيه ٧

قبل أن ترحل ١٥

حب آخر ١٧

خادم المسجد ٢٠

بدلة عرفه ٢٩

لم يعد ينتظر ٣٦

ليلة زفاف القمر ٣٧

جمال لا يدوم ٤١

ورق عنب ٤٤

فرصة سعيدة ٤٧

كعادتنا ٥٠

رائحة المكان ٥٢

من يشتري التفاح ٥٣

نحو القمة ٥٧

ذلك الإمام ٦٥

كل الطرق ٦٦

٢٠ شارع عواد خليفة ٦٧

طرق التواصل مع الكاتب ٩٠

شكر ومحبة ٩١

فصلة
للنشر والتوزيع
Fasla Publishing & Distribution

تواصل معنا :

01067000701

**E-mail -: Fasla .Pub@Gmail.
com**

Facebook .Com/Fasla .Pub